بسم الله الرحمن الرحيم

أنا مالالا

الفتاة التي ناضلت من أجل التعليم

وأطلقت عليها حركة طالبان النار

مالالا يوسف زاي

مع كريستينا لامب

- القسم ٢١ -

"إني استودعتك أياها، يا ربي"

فور أن استوعب عثمان باي جان الواقعة قاد سيارة الداينا بأقصى سرعتها إلى مستشفى سوات المركزي. كنت مستلقية على حِجر مونيبه، والدم يسيل من رأسي وأذني اليسرى، أما بقية البنات الأخريات كُنَ يصرخن ويبكين. ولم نقطع سوى مسافة قصيرة حتى اوقف رجل شرطة سيارة الفان التي نستقلها وبدأ بطرح الأسئلة، ولم يدر بخلده أنه يضيع علينا وقتاً ثميناً. في غضون ذلك جست احدى الفتيات النبض في رقبتي، ثم صاحت "إنها لا تزال حية!". واستطردت قائلةً "يجب علينا توصيلها إلى المستشفى بأسرع ما يمكن، أتركنا وشأننا" وأقبض على الفاعل.

بدت لنا مدينة مونجورا كأحدى المدن الكبرى ولكنها في واقع الأمر لم تكن سوى مكان صغير أنتشر فيه الخبر بسرعة كبيرة. في هذه الأثناء، كان أبي يحضر اجتماع اتحاد أصحاب المدارس الخاصة المنعقد في نادي وادي سوات للصحافة، وفور اعتلائه للمنصة لإلقاء كلمته رن هاتفه المتحرك. لقد عرف أن المتصل هو مدرسة خوشال لذلك أعطى الهاتف لصديقه أحمد شاه لكي يرد عليه. وبسرعة همس أحمد في أذن أبي قائلاً "لقد أُطلِقت النار على باص مدرستكم".

لقد أمتقع وجه أبي. وذهب تفكيره فوراً لربما كنت أنا في ذلك الباص! ثم حاول طمأنة نفسه، بأنه ربما يكون شاباً عاشقاً غيوراً قد أطلق نيران مسدسه في الهواء ليحرج محبوبته. في تلك اللحظة كان يحضر اجتماع هام لحوالي أربعمائة مدير مدرسة حضروا من كافة أصقاع وادي سوات للاحتجاج على الخطط الحكومية لفرض سلطة تنظيمية مركزية. وبصفته مديراً لجمعية أصحاب المدارس الخاصة، لقد استشعر حجم المسؤولية وأبت نفسه أن تخيب آمال المجتمعين أمامه، لذلك ألقى كلمته حسب البرنامج. ولكن كانت هنا قطرات من العرق تجمعت على جبهته، وبدا للعيان بأن لا حاجة لأحد لتنبيهه لتجفيفها.

ما أن انهى أبي إلقاء كلمته إنصرف مسرعاً إلى المستشفى برفقة صديقه أحمد شاه وصديق آخر يسمى رضا، صاحب السيارة التي أقلتهم، من دون أن ينتظر أسئلة المستمعين. لم تكن المستشفى تبعد سوى خمسة دقائق من مكان الاجتماع. وعند وصولهم وجدوا جموع من الناس والمصورين ومراسلي محطات التلفزة متجمهرين خارج المستشفى. عندها تيقن أبي بأنني في ذلك المكان. أنقبض قلبه. قشق طريقه بين الجمهور وركض مسرعاً بين أضواء الكاميرات إلى داخل المستشفى. في الداخل، كنت مطروحة على نقالة ورأسي ملفوفة بالضمادات وعيناي مغلقتان وقد تبعثرت خصلات شعري.

"أبنتي، أنت أبنتي الشجاعة، الجميلة" كان أبي يهتف بهذه الكلمات وظل يرددها مراراً وتكراراً، بينما كان يقبل جبهتي وخدودي وأنفي. ولم يكن يدري لماذا يكلمني باللغة الانجليزية. وأعتقد أنني عرفت بطريقة ما بأنه لا يزال بجواري رغم أن عيناي مغلقتان. ثم أردف أبي لاحقاً، "لا استطيع تفسير ذلك. لقد شعرت بأنها استجابت". لقد قال أحد الحضور بأنني قد ابتسمت. ولكنها بالنسبة لأبي لم تكن مجرد ابتسامة، وإنما كانت مجرد برهة جميلة صغيرة عرف من خلالها بأنه لم يخسرني إلى الأبد. كان أسوأ شيء حدث لأبي في حياته، هو مشاهدتي في تلك الحالة. من المعلوم أن كل الأطفال لديهم مكانة خاصة في نفوس أبائهم، أما أنا فكنت لأبي الكون كله. لقد كنت رفيقة دربه لفترة طويلة، أولاً تحت أسم مستعار "غول ماكاي" ثم علناً باسمي 'مالالا'. وكان يعتقد دائماً بأن طالبان إذا استهدفت شخص من العائلة فإنها ستستهدفه هو وليس أنا. لقد قال أبي بأنه شعر كأن صاعقة قد ضربته. ثم أضاف "يريدون أن يضربوا عصفورين بحجر واحد. يقتلوا مالالا ويسكتوني إلى الأبد".

إنتشر الناس في كل مكان في المستشفى وكان أبي خائفاً جداً ولكنه لم يكن يبكي. وصل كل مديرو المدارس الذين حضروا الاجتماع إلى المستشفى وكذلك العشرات من وسائل الاعلام والأنشطة، وقد بدأ الأمر كأن المدينة بأكملها حاضرة في المكان. قال لهم أبي، "صلوا من أجل مالالا". وقد أكد له الأطباء بأن الأشعة المقطعية التي أجروها قد أظهرت بأن الطلقة لم تمر بجوار دماغي وأنهم قد نظفوا وضمدوا الجرح.

لم تكن السيدة مريم قد ذهبت إلى المدرسة في ذلك اليوم وأنما كانت تمارض إبنها في البيت عندما أتصل صهرها ليطمئن على سلامتها. وبجذع، فتحت التلفاز وشاهدت العناوين الرئيسية للأخبار التي تفيد بأطلاق النار على باص مدرسة خوشال. وبمجرد سماعها باطلاق النار علي، اتصلت بزوجها. وبدوره أحضرها لمستشفى على ظهر دراجته النارية، وأنه لأمر نادر جداً أن تشاهد أمرأة مرموقة من البشتون تتنقل بهذه الطريقة. دلفت السيدة مريم من الأبواب مسرعةً وهي تسأل مستنكرةً "ماذا فعلوا! يا ضياء الدين". وبدأت تصيح "مالالا مالالا، هل تسمعيني".

كنت أشخر. حاولت مريم جاهدة معرفة المزيد عما يدور. لقد قال لها طبيب من معارفها، أن الطلقة قد مرت من خلال جبهتي وليس دماغي، وبالتالي قد نجوت. كما أنها رأت أيضاً الفتاتين الأخريين من مدرسة خوشال اللتانأُطلقت النار عليهما معي. لقد تم احضار شادية إلى المستشفي معي وهي مصابة في موضعين؛ إصابة في عظمة الترقوة اليسرى وأخرى في كفها. أما كاينت لم تدرك في بادي الأمر بأنها قد أصيبت لذلك ذهبت إلى منزلها، ثم أكتشفت لاحقاً بأنها قد خُدشت برصاصة في أعلى من ذراعها الأيمن لذلك أحضرها أهلها إلى المستشفى.

لقد أدرك أبي أن الواجب يحتم عليه الذهاب والتأكد من سلامة هاتين الفتاتين إلا أنه لم يكن يرغب في مبارحة جواري ولو لدقيقة واحدة. وظل هاتفه المتحرك يرن باستمرار. رئيس وزراء منطقة البشتون كان أول المتصلين وتحدث قائلاً "لا تقلقل، سنعرف كل شيء. إن مستشفى ليدي ريدينغ في بيشاور يتوقع حضورك، ولكن القوات المسلحة تولت زمام الأمور". في تمام الساعة الثالثة عصراً حضر القائد العسكري للمنطقة وأعلن بأنهم قد أرسلوا مروحية عسكرية لتأخذني مع أبي إلى بيشاور. لم يكن هناك وقت لإحضار أمي، لذا أصرت مريم على الذهاب معنا لربما احتاجُ لمساعدة نسوية. لم يرق هذا الأمر أسرة مريم لكونها لا تزال تمارض طفلها الذي خضع لعملية صغيرة مؤخراً . ولكنها بمثابة أمي الثانية.

عندما وضعتُ في سيارة الأسعاف، كان أبي خائفاً من أن تعاود طالبان الهجوم. ولذلك فإنه رأى أنه لا بد من أن يكون جميع الموجودين داخل الاسعاف معروفين. لم يكن يبعد مهبط المروحيات سوى مسافة ميل واحد فقط، وحوالي خمسة دقائق بالسيارة، إلا أن أبي كان خائفاً طوال المسافة. لم تكن المروحية قد وصلت عندما بلغنا المهبط، لذا ظلننا نتظر في سيارة الأسعاف مدة بدت في نظر أبي كساعات. وأخيراً هبطت المروحية ووضعتُ على متنها مع أبي وإبن عمي

خانجي وأحمد شاه ومريم. ولم يسبق لأحدهما أن ركب طائرة مروحية. وبعد إقلاعها طرنا فوق مهرجان رياضي عسكري في جو معطر بالموسيقى الوطنية المنبعثة من مكبرات الصوت.

لقد أحس أبي بشئ من الأسى والمرارة لسماع الجنود يتغنون بحبهم للوطن. كان بطبيعته يحب الغناء، ولكن الأغاني الوطنية تبدو غير مناسبة في حين أن أبنته البالغة من العمر خمسة عشر سنة ترقد هنا مصابة بطلق ناري على رأسها، وكادت أن تعتبر في عداد الاموات.

في الأسفل كانت أمي تشاهدنا من على سطح منزلنا. لقد كانت تحضر درس في القراءة لدى السيدة أوُلفت حيث كانت تجاهد لتعلم كلمات مثل؛ 'كتاب' و'تفاحة' عندما سمعت عن اصابتي. في البداية كانت الأخبار مشوشة، وفي بادي الأمر أعتقدت أمي بأنني قد جرحت في قدمي جراء تعرضي لحادث، واسرعت لمنزلنا وأخبرت جدتي، التي تقيم معنا في ذلك الوقت، وتوسلت لها لتصلي من أجلي في الحال. فإننا نعتقد بأن الله يستجيب للمسنين. ثم لاحظت أمي نصف البيضة المتبقية من إفطاري. كما أجهشت أمي بالبكاء لرؤيتها لصورتي وأنا استلم الجوائز التقديرية المنتشرة في كل مكان في البيت. وأستهجنت تلك الصور التي تجعل كل ما حولها يذكرها بمالالا.

لم تمضي سوى برهة من الزمن حتى أمتلأ المنزل بالنساء. وبحسب عاداتنا وتقاليدنا، عندما يتوفى أحد الأشخاص فإن النساء يحضرن إلى منزل الفقيد بينما يذهب الرجال إلى "الحجرة"[1]، وليس الحضور حصراً على أفراد العائلة والأصدقاء المقربين فقط إنما يحضر جميع الجيران.

ذهلت أمي لرؤيتها لهذه الجموع الغفيرة من الناس. وجلست على المصلاية وبدأت تتلو آيات من الذكر الحكيم. قالت للنساء، "لا تبكين – تضرعن لها!"، ثم دخل أخوتي الغرفة مسرعين. قام أخى أتال الذي أتى ماشياً من المدرسة بفتح التلفاز وشاهد الأخبار التي تتحدث عن أصابتي بطلق ناري. فنادى على أخي خوشال وبدءا يبكيان معاً. وفي هذه الأثناء لم يتوقف الهاتف عن الرنين. وشرع الناس في طمأنة أمي بأنني بخير رغم إصابتي في رأسي، حيث إن الطلقة خدشت جبهتي فقط. لقد تشوشت أفكار أمي بشكل كبير لاختلاف الروايات حولي، في البدء قالوا بأنني قد جرحت في رجلي، ثم أردفوا بأنني قد أصبت بطلق ناري في رأسي. لقد فكرت بأنني سأستغرب عدم حضورها إلي، ولكن بعض الناس قد نصحوها بعدم الذهاب حيث أنني ربما أكون ميتة الآن أو على وشك أن أنقل إلى المستشفى. أتصل بها أحد أصدقاء أبي وأخبرها بأنني قد أُخذت إلى بيشاور

[1] مكان اجتماع رجال البشتون عند زيارة أو الحضور إلى منزل أحدهم (أي بمثابة الديوان أو الصالون)

بواسطة مروحية ويمكنها أن تحضر إلى هناك براً. إن أسوأ لحظة مرت بها، كانت تلك التي حضر فيها أحد الأشخاص إلى المنزل حاملاً مفاتيح الباب الأمامي التي كنت استخدمها والتي وجدت في موقع إطلاق النار. صرخت أمي "لا أريد المفاتيح، أريد أبنتي". "ما فائدة المفاتيح بدون مالالا؟" ثم سمع كل الحاضرين صوت المروحية.

لم يكن مهبط المروحيات يبعد عن منزلناسواء ميلاً واحداً مما حدا بجميع النساء الهروع إلى سطح المنزل وهتفن "لا بد إنها مالالا!" وبينما كن يشاهدن المروحية ترتفع مبتعدةً في جوف السماء، نزعت أمي خمار رأسها، وإنها لحالة نادرة جداً أن ترى إمرأة من البشتون في هذه الحالة، وأمسكت به بكلتا يديها ورفعته عالياً في السماء كما لو أنه قرباناً، وقالت "إني استودعتك أياها يا ربي، إلى جنات الخلد. نحن لا نثق في حراس الأمن – أنت الذي يحمينا يا رب. إنها تحت عنايتك يا رب وأنت القادر على إعادتها إلينا".

في داخل المروحية كنت أتقيا دماً. كان أبيقلقاً، وبدأ يفكر أن القئ مؤشراً على معانتي من نزيف داخلي. لقد بدأ يفقد الأمل. ولكن مريم لاحظت بأنني أحاول أن أمسح فمي بواسطة وشاحي. وقالت "أنظر، إنها تستجيب! هذه علامة ممتازة". وعندما هبطنا في بيشاور، كان من المفترض أن نؤخذ إلى مستشفى ليدي ريدينغ، حيث يوجد به جراح أعصاب ماهر جداً يدعى الدكتور ممتاز والذي نُصحنا بالذهاب إليه. وبدلاً من ذلك أُصبنا بالهلع لكوننا سنؤخذ إلى مجمع القوات المسلحة الطبي. أنه مبنى كبير مترامي الأطراف يتكون من ستمائة سرير ومبني من الطوب الأحمر ويعود تاريخ إنشاءه إلى عهد الحكم البريطاني. هناك الكثير من أعمال التشييد جارية في المكان لبناء برج سكني جديد. تعد مدينة بيشاور بوابة الدخول لمنطقة فاتا[٢]، ومنذ أن دخلت القوات المسلحة تلك المنطقة في عام ٢٠٠٤ للقضاء على المليشيات المسلحة، أصبح المستشفى مشغولاً جداً بالعناية بالجنود الجرحى وضحايا التفجيرات الانتحارية المتكررة في المدينة وما حولها. وكما في أجزاء كثيرة من بلدنا، كانت توجد الكثير من الكتل الخرصانية ونقاط التفتيش حول المستشفى لحمايته من المهاجمين الانتحاريين.

وعلى وجه السرعة أدخلتُ إلى غرفة العناية المركزية، والتي كانت توجد في مبنى منفصل. أشارت الساعة المعلقة فوق مكتب الممرضات إلى الخامسة مساءاً. ثم أدخلتُ على سرير بعجلات إلى وحدة العزل ذات الجدران الزجاجية وحقنتني الممرضة بسائل الوريد[٣]. في الغرفة

[٢] المناطق القبلية تحت الإدارة الاتحادية .
[٣] الدرِّب.

المجاورة كان يرقد جندي أصيب بحروق مروعة أثر تعرضه لهجوم بعبوة ناسفة وقد بترت أحدى رجليه جراء الانفجار. دخل شاب إلى الغرفة معرفاً عن نفسه بأنه العقيد جنيد، جراح أعصاب. لقد زادت حيرت أبي أكثر. أعتقد أبي بأنه لم يبدو كطبيب، حيث يبدو صغيراً جداً. سأله العقيد قائلاً "هل هي أبنتك". تظاهرت مريم بأنها أمي لكي تتمكن من الدخول.

قام العقيد جنيد بإجراء الفحوصات اللازمة لي. في تلك اللحظة كنت واعية ومضطربة إلا أنني لا أتكلم وغير مدركة لما يجري حوالي وعيناي ترفرفان. قطب العقيد الجرح الناتج من دخول الطلقة والموجود فوق حاجبي الأيسر، ولكنه كان متعجباً جداً لعدم رؤيته لأي رصاصة في الأشعة. وقال "ما دام يوجد مدخل للرصاصة فلا بد من وجود مخرج لها". فتحسس عمودي الفقري وحدد مكان الرصاصة بأنها قد استقرت بجوار لوحة كتفي الأيسر. وقال "لا بد أنها قد أوقفت لذلك، حيث كانت رقبتها منحنية عندما أطلقت عليها النار". ثم أخذوني لعمل المزيد من صور الأشعة المقطعية. استدعى العقيد أبي إلى مكتبه، حيث كان يعرض الصور على شاشة في المكتب. وقال له أن الأشعة التي أخذت لي في سوات قد أخذت من زاوية واحدة فقط، بينما الأشعة الجديدة تظهر أن الأصابة أكثر خطورة. ثم قال "أنظر يا ضياء الدين، أن الأشعة المقطعية أظهرت أن الطلقة قد مرت قريباً جداً من الدماغ". وقال أن جزيئات العظام قد أتلفت غشاء الدماغ. وقال "دعونا نبتهل لله، وننتظر ونرى. ولن نجري لها عملية في هذه المرحلة".

إزدادت حدة عصبية أبي. قد بسّط له الأطباء الأمرفي سوات، والآن يبدو الأمر في غاية الخطورة. وإن كان الأمر جدياً لهذه الدرجة فلماذا لا تجرى لها العملية؟ كان يشعر بعدم الارتياح لوجودنا في المستشفى العسكري. وفي بلدنا حيث استولى العسكر على السلطة في مرات عديدة، فإن الناس غالباً ما يتوجسوا خيفة من العسكريين، ولا سيما المنحدرين من وادي سوات، حيث أمضى الجيش فترة طويلة يقاتل ضد طالبان. قام أحد أصدقاء أبي بإستدعائه وقال له "أنقلها من هذا المستشفى. لا نريدها أن تصبح شهيدة "الملة"[٤] مثل لياقت على خان"[٥]. لم يدري أبي ما يفعل.

قال أبي للعقيد جنيد، "أنني مشوش الفكر. لماذا نحن هنا؟ لقد كنت أعتقد بأننا سنذهب إلى مستشفى مدني". ثم طلب منه، "لو تكرمت، هلا أحضرت الدكتور ممتاز". رد عليه العقيد جنيد، الذي أعتاد على مثل هذه الإهانات، "كيف يبدو الأمر؟" وبعدئذ، أكتشفنا أنه رغم مظهره الشبابي أنه يعمل جراح أعصاب منذ ثلاثة عشر سنة وأنه أكثر جراحي الأعصاب خبرة وتقلداً للأوسمة في

[٤] شهيدة الأمة.
[٥] صديق أبي الذي إغتالته طالبان.

القوات المسلحة الباكستانية. لقد إلتحق بالقوات المسلحة بصفة طبيب نسبة لمعارفه المتنفذين، سائراً على خطى عمه، الذي عمل أيضاً جراح أعصاب بالقوات المسلحة. يقع مجمع القوات المسلحة الطبي في الخطوط الأمامية للحرب على طالبان وأن العقيد جنيد يتعامل مع جرحى الطلقات النارية والتفجيرات بشكل يومي. وقال العقيد جنيد لاحقاً، "لقد عالجت الآلاف من مثل حالة مالالا". ولكن أبي لم يكن يعلم هذا الأمر في ذلك الوقت، لذا أصبح مستاءاً جداً. وقال له أبي، "أفعل أي شيء في رأيك، فأنت الطبيب".

وكانت الساعات القليلة القادمة لحظات انتظار وترقب، وظلت الممرضات يراقبّن نبضات قلبي ومؤشراتي الحيوية. وأحياناً كنت أصدر همهمة خافتة وأحرك يدي أو أرفرف بعينيً. مما حدا بمريم أن تصيح قائلَةً، "مالالا، مالالا". وما أن فتحت عيني بالكامل، حتى هتفت مريم، "لم أكن لاحظت أبداً من قبل كم هي جميلة عيناها". لقد كنت في حالة اضطراب وظللت أحاول نزع جهاز مراقبة المؤشرات الحيوية من أصبعي. فنبهتني مريم بشيئ من الجدية، "لا تفعلي ذلك". وهمست لها كما لو كنا في المدرسة، "لا توبخيني، يا آنسة". فالآنسة مريم كانت مديرة مدرسة صارمة.

في وقت متأخر من المساء حضرت أمي مع أخي أتال. استغرقت رحلتهما أربعة ساعات على الطريق وقد أوصلهما صديق أبي السيد محمد فاروق. استدعت مريم أمي لتحذيرها قبل وصولها إلي قائلة لها، "لا تبكي أوتصرخي عندما ترين مالالا، يمكنها أن تسمعك حتى لو ظننتي خلاف ذلك".كما أن أبي استدعاها أيضاً وقال لها أن تستعد للأسوء. أنه يريد بذلك حمايتها.

عندما حضرت أمي تعانقوا وحبسوا الدموع. وقالت لي، "هذا هو أتال أتى لرؤيتك. لقد غمر الأسى أخي أتال وانتحب بحرقة. "ماما"، وانتحب، "لقد تأذت مالالا بشكل سيء للغاية". لقد كانت أمي في حالة صدمة ولم تستوعب لماذا لم يقوم الأطباء بأجراء عملية لي لإخراج الطلقة. وبكت وهي تقول، "أبنتي الشجاعة، أبنتي الجميلة". كان أتال يصدر الكثير من الضوضاء مما حدا بأحد الإداريين باقتيادهم في نهاية المطاف إلى المسكن العسكري الخاص بالمستشفى حيث تم استضافتهم فيه.

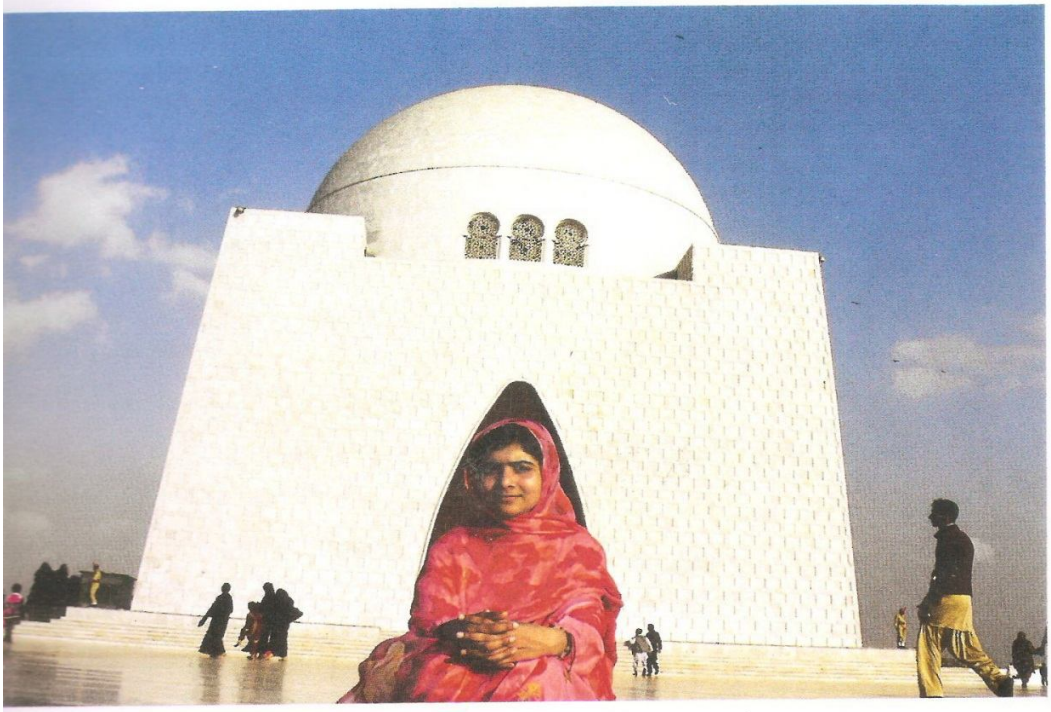

أمام ضريح محمد جناح، مؤسس باكستان

أبي مع كبار رجال وادي سوات

تفجير المدرسة

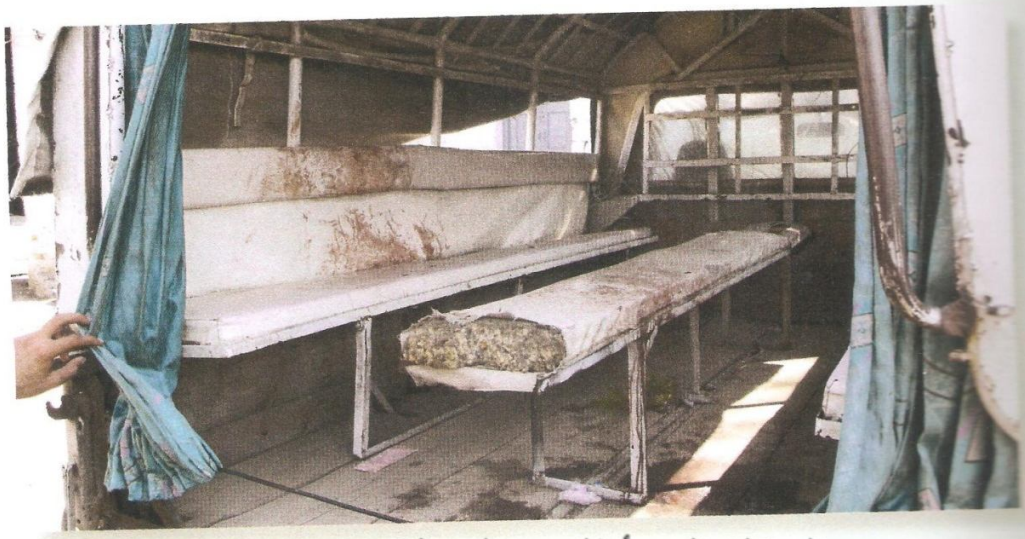

الحافلة التي أطلقت علي النار فيها

الدكتور جاويد والدكتورة فيونا بجوار سريري

أيامي الأولى في مستشفى برمنجهام

أقرأ في المستشفى

السيدة مريم مديرة مدرستنا (أقصى اليمين)، مع شادية إحدى الفتيات اللتي أُطلقت عليهن النار معي

الكرسي الذي أحتفظ به أصدقائي في الفصل
(أقصى اليمين)

السيد أحمد، مدير مدرسة الأولاد، يحيى ملصق صورتي في كل صباح

أنا مع بان كي مون وجولدن براون وعائلتي وأصدقائي
في الأمم المتحدة

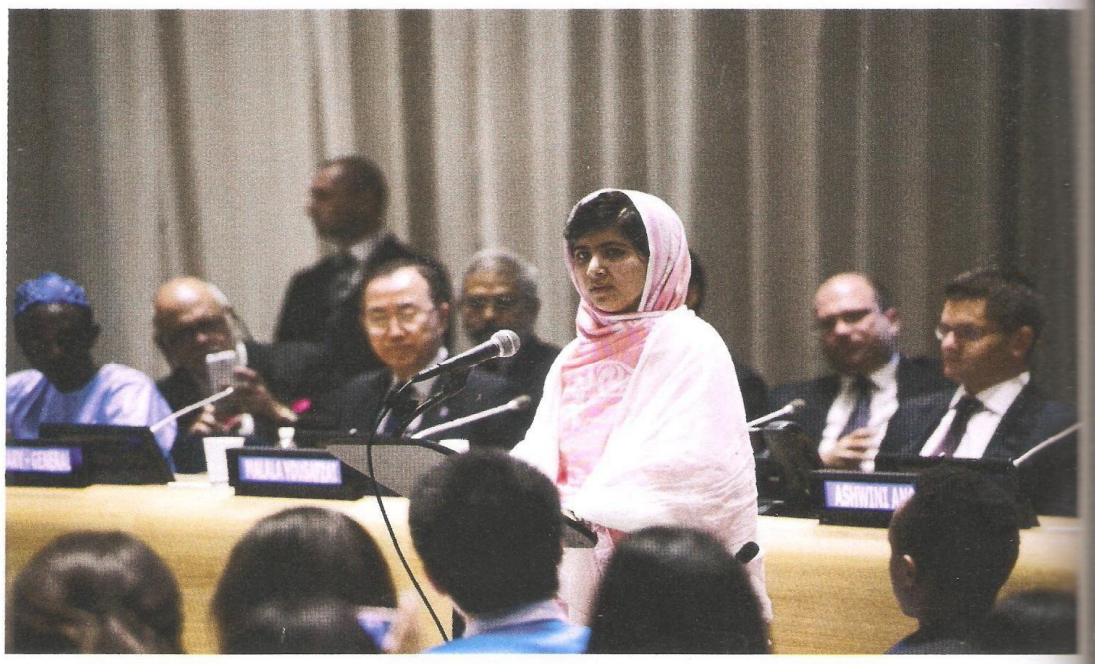

أتحدثَ في الأمم المتحدة في عيد ميلادي السادس عشر

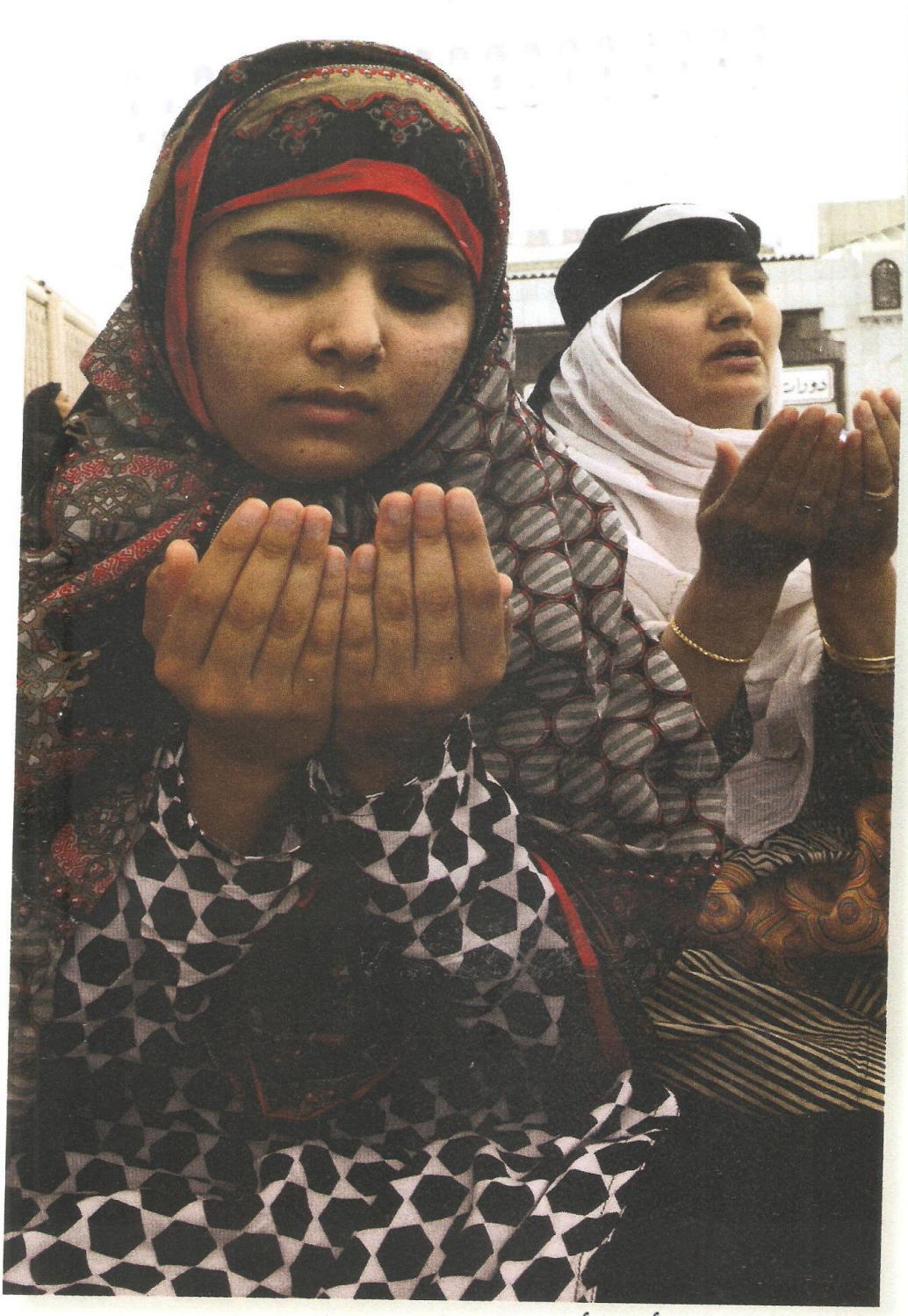

أنا وأمي في المدينة المنورة

مع عائلتي أمام منزلنا الجديد في برمنجهام

لقد كان أبي حائراً من تواجد تلك الجموع الغفيرة في الخارج – السياسيون وكبار الشخصيات الحكومية ووزراء الأقاليم الذي حضروا لإبداء تعاطفهم. حتى حاكم الأقليم كان موجوداً بينهم وقد أعطى أبي مائة ألف روبية مصاريفاً لعلاجي. ومن المتعارف عليه في مجتمعنا أن يشعر الشخص بالفخر إذا حضر أحد كبار الشخصيات لمنزله لمواساته في وفاة عزيز لديه. ولكن أبي منزعج الآن. وشعر بأن كل هؤلاء الأشخاص المرموقين منتظرين فقط وفاتي في حين لم يفعلوا أي شيء من قبل لحمايتي.

وفيما بعد، بينما كانوا يتناولوا الطعام، أدار أتال التلفاز، فأطفأه أبي على الفور. لم يكن يستطيع في تلك اللحظة مواجهة أخبار الهجوم علي. ولكن مريم أعادت تشغيل التلفاز بعد مغادرة أبي للغرفة. كانت كل القنوات تعرض لقطات لي مع تعليق بالتضرعات والقصائد المؤثرة كما لو أنني قد تُوفيتُ. صرخت أمي،"أبنتي مالالا، أبنتي مالالا"، وآزرتها مريم.

في حوالي منتصف الليل طلب العقيد جنيد مقابلة أبي خارج غرفة العناية المركزة. وقال له، " ضياء الدين، إن دماغ مالالا ينتفخ". لم يستوعب أبي مغزى الكلام. وقال له الطبيب أن حالتي بدأت في التدهور، ووعيي يتلاشى، وبدأت أتقيا دماً مرة أخرى. أمر العقيد جنيد بأخذ أشعة مقطعية لي للمرة الثالثة. وقد أظهرت بأن ذهني ينتفخ بصورة خطرة جداً. وقال أبي، "ولكني اعتقدت بأن الطلقة لم تدخل دماغها". وأوضح العقيد جنيد بأن عظم جمجمتي قد إنكسر وأن شظية منه قد دخلت في دماغي، متسببة في صدمة ومؤدية إلى انتفاخ الدماغ. وإنه في حاجة لإزالة جزء من جمجمتي لإفساح المجال للدماغ لكي يتمدد، وإلا فإن ضغط زيادة حجم الدماغ يصبح فوق الاحتمال. وقال، "يجب أن نجري لها العملية الآن لكي نمنحها فرصة للنجاة. وربما تموت إذا لم نجري لها العملية. ولا أريدك أن تنظر للخلف بعد فترة وتندم على أنك لم تجري لها العملية". إزالة جزء من جمجتي بدى أمراً قاسياً جداً على أبي. وسأل أبي بيأس، "هل ستبقى على قيد الحياة؟" ولكن قد تمت طمأنة أبي بعض الشيء في تلك المرحلة.

لقد كان قراراً شجاعاً من العقيد جنيد، رغم أن رؤسائه كانوا غير مقتنعين وأشار عليه بعض الأشخاص بأنه يجب إرسالي إلى الخارج. وكان القرار الذي أنقذ حياتي. وقال له أبي أمضي قدماً، وقال العقيد جنيد بأنه سيحضر الدكتور ممتاز لمساعدته. وصافح أبي لأنه وقع أوراق الموافقة على العملية. وكان مكتوب بالحبر الأسود والأبيض عبارة "قد يموت المريض".

لقد بدأوا العملية في حوالي الساعة الواحدة والنصف صباحاً. جلس أبي خارج غرفة العمليات. وتضرع أبي لله قائلاً، "يا إلهي، أرجوك أشفي فلذة كبدي مالالا". وأكمل يناجي ربه، "حتى لو أعيش في واحدة من أجرد الصحارى، فإني أريد رؤية عينيها مفتحتين؛ لا أستطيع العيش بدونها. يا إلهي، دعني أهبها بقيت عمري؛ لقد عشت بما فيه الكفاية. حتى لو كانت مصابة، أرجوك أن تسمح لها بالعيش". وفي نهاية المطاف قاطعته أمي قائلةً، "إن الله ليس بخيلاً. سيرد علي أبنتي كما كانت". وبدأت تصلي وهي واقفة في مواجهة الحائط والمصحف الشريف في يدها، وتتلو آيات منالذكر الحكيم مراراً وتكراراً لعدة ساعات. قالت الآنسة مريم، "لم أري قط في حياتي شخصاً يصلي بمثل طريقتها. أنا متأكدة بأن الله سيستجيب لمثل هذه الصلاة."

حاول أبي أن لا يفكر في الماضي، ما إذا كان مخطئاً بتشجيعي للتحدث على الملأ وتنظيم الحملات. وفي داخل غرفة العمليات، استخدم العقيد جنيد منشار لإزالة ما بين ثمانية إلى تسع سنتمترات مربعة من الجزء العلوي الأيسر من جمجمتي لكي يعطي مساحة لدماغي للتمدد. ثم أخذ قطعة من الأنسجة تحت الجلد من الجهة اليسرى من بطني ووضع قطعة العظم فيها للمحافظة عليها. ثم قطع القصبة الهوائية حيث شعر بالقلق من أن يسد التضخم مجرى تنفسي. كما أزال الدم المتخثر من دماغي والطلقة من لوحة كتفي. بعد كل هذه الإجراءات وُضعت في جهاز التنفس الصناعي. علماً بأن العملية قد استغرقت حوالي خمسة ساعات.

وبغض النظر عن صلوات وتضرعات أمي، فإن أبي أعتقد أن خمسة وتسعين في المائة من الناس الموجودين في الخارج منتظرين سماع خبر وفاتي. رغم أن بعضهم كان من أصدقائه ومؤازريه وأنهم كانوامستائين جداً، لكنه شعر بغيرة الآخرين من مكانتنا المرموقة وأعتقدوا بأننا قد حصلنا على ما كان مقدراً لنا.

كان أبي يقف بالخارج يأخذ استراحة قليلة من ضغوط غرفة العمليات عندما أقتربت منه إحدى الممرضات قائلة، "هل أنت والد مالالا؟". فانقبض قلب أبي مرة أخرى. ثم اقتادته الممرضة إلى داخل الغرفة. كان يعتقد بأنها ستقول، "نحن آسفون، نخشى أن نكون قد فقدناها". ولكن عندما دخل قيل له، "نريد شخصاً ما يحضر الدم من بنك الدم". لقد شعر بالارتياح ولكنه احتار في الأمر. وتسائل، "أأنا الشخص الوحيد القادر على احضاره؟" ولكن ذهب أحد أصدقائه بدلاً عنه. خرج الجراحون من الغرفة في تمام الساعة الخامسة والنصف صباحاً وقالوا لأبي، من بين عدة أمور أخرى، أنهم قد أزالوا جزء من جمجمتي ووضعوه في جوفي. وهذا أمر غير مألوف في ثقافتنا أن يوضح الأطباء الأمور للمرضى وأقربائهم. بكل تواضع سأل أبي، "إذا لم تمانع، لدي سؤال سخيف.

هل ستنجو – ماذا تعتقد؟ فأجابه العقيد جنيد، "في الطب إن أثنين زائد أثنين لا تساوي أربعة. لقد أدينا عملنا – أزلنا قطعة من الجمجمة. والآن يجب علينا الإنتظار". قال أبي، "لدى سؤال سخيف آخر. ماذا عن ذلك العظم؟ ماذا ستفعلوا به؟ رد عليه دكتور ممتاز، "سنعيده إلى مكانه السابق بعد ثلاثة أشهر. إنه بهذه البساطة، تماماً مثل هذا". وصفق بيديه.

في صباح اليوم التالي كانت الأخبار جيدة، لقد حركت ذراعيّي. ثم حضر ثلاثة من كبار الجراحين من المقاطعة لمعاينتي. وقالوا، "أن العقيد جنيد والطبيب ممتاز قد قاما بعمل رائع، وأن العملية قد جرت بشكل جيد جداً، ولكن الآن يجب أن أظل في حالة غيبوبة لأنه سيحصل ضغط على الدماغ لو استعدت وعي.

بينما كنت أكافح بين الحياة والموت، أصدرت طالبان بياناً تبنت فيه مسؤولية إطلاق النار علي ولكنها أنكرت أن السبب وراء ذلك هو نشاطي في مجال التعليم. حيث قال احسان الله احسان المتحدث بأسم طالبان الباكستانية، "لقد قمنا بهذا الهجوم، وستتم مهاجمة أي شخص يتحدث ضدنا بنفس الطريقة. لقد تمت مهاجمة مالالا نسبة لدورها الرائد في التبشير بالعلمانية... إنها صغيرة ولكنها تروج للثقافة الغربية في مناطق البشتون. كانت مؤيدة للغرب، وتتحدث ضد طالبان، وترى أن الرئيس أوباما مثلها الأعلى". عرف أبي ما كان يلمح إليه. حيث كان يشير إلى حديثي بعد ما فزت بجائزة السلام الوطني في العام المنصرم، وأنتهيت من مقابلاتي التلفزيونية والتي طُلب مني في إحداها أن أسمي السياسين المفضلين لدي. فقد أخترت عبدالقدير خان[٦] وبنازير بوتو[٧] وباراك أوباما[٨]. لقد أعجبت بشخصية أوباما بعد أن قرأت عنه لكونه شاب من السود ينحدر من عائلة مكافحة استطاع تحقيق احلامه وطموحاته. ولكن صورة أمريكا في باكستان قد أصبحت واحدة من طائرات بدون طيار وغارات جوية على أرضنا وديفيس ريموند[٩]. كما قال المتحدث بأسم طالبان أن الملا فضل الله قد أمر بالهجوم خلال أجتماع عقد قبل شهرين. حيث قال، "أي شخص يقف مع الحكومة ضدنا سيموت على أيادينا. سترونً. أشخاص مهمين آخرين سيصبحون ضحايا". وأضاف بأنهم استخدموا رجلين من سكان وادي سوات قاما بجمع المعلومات عني والطرق التي اسلكها للمدرسة وأنهم تعمدوا الهجوم بالقرب من نقطة تفتيش خاصة بالقوات المسلحة لإثبات مقدرتهم على الضرب في أي مكان.

---

[٦] أبو القنبلة الذرية الباكستانية الذي دخل إلى المجال السياسي مؤخراً.
[٧] رئيسة وزراء باكستان لولايتين وقد أغتيلت مؤخراً.
[٨] الرئيس الأمريكي الحالي.
[٩] شخص أمريكي كان يتجول في إسلام أباد عاصمة باكستان وقام بإغتيال ثلاثة باكستانين دون سبب أو سلطة سوى شكه في ملاحقتهم.

في أول الصباح، وبعد ساعات قليلة من عمليتي، أجتاحت المكان موجة فجائية من الأنشطة، حيث بدأ الناس بترتيب زي العمل وتنظيف المكان. ثم أقتحم اللواء كياني قائد الجيش المكان. وقال لأبي، "إن الأمة تتضرع من أجلك وأبنتك". لقد كنت التقيت اللواء كياني عندما حضر إلى وادي سوات لحضور اجتماع هام عقد في نهاية عام ٢٠٠٩ بعد حملة ضد طالبان. وقد قلت في ذلك الأجتماع، "إنني مسرورة لأنك قمت بعمل رائع. وأنت الآن بحاجة لأن تلقي القبض على فضل الله". فضجت القاعة بالتصفيق وتقدم اللواء كياني ووضع يده على رأسي مثل الأب.

أعطى العقيد جنيد اللواء فكرة مختصرة عن العملية والخطة المقترحة للعلاج، وقال له اللواء كياني؛ يجب عليه إرسال الأشعة المقطعية لأفضل الخبراء في الخارج للحصول على المشورة. ولم يسمح لأحد آخر بعد تلك الزيارة بالتواجد بجوار سريري خوفاً من خطر العدوى. ولكن ظل الكثير يترددون علي؛ أمثال بطل الكريكت الذي تحول إلى سياسي السيد عمران خان، ووزير الأعلام في المقاطعة السيد معين افتخار حسين الذي ينتقد طالبان علناً وقد فقد أبنه الوحيد الذي اقتالته طالبان، والسيد حيدر هوتي رئيس وزراء مقاطعتنا، والذين ظهرت معهم في برامج المناقشات الحوارية. وبالطبع لم يسمح لأحد منهم بالدخول. قال هوتي للناس، "أطمئنوا إن مالالا لن تموت إن شاء الله. لا يزال لديها الكثير لتفعله".

في حوالي الساعة الثالثة عصراً حضر أثنان من الأطباء البرياطنيين بطائرة مروحية وهما دكتور جاويد كياني والدكتورة رينولدز فيونا ويعملان في مستشفيات في برمنجهام وتصادف وجودهما في باكستان لتقديم المشورة للقوات المسحلة حول كيفية إعداد أول برنامج لزراعة الكبد في البلاد. إن بلدنا متخمة بالإحصائيات المروعة، ليس في مجال التعليم فقط، إنما واحدة منها هي أن كل واحد من سبعة من الأطفال في باكستان مصاب بإلتهاب الكبد ويتوفى الكثير منهم بسبب أمراض الكبد، ويعزى السبب إلى حد كبير إلى الحقن الملوثة. لقد صمم اللواء كياني على تغيير هذا الأمر، وهكذا مرة أخرى حازت القوات المسلحة على قصب السبق بالتدخل بينما فشلت السلطات المدنية. وفي صباح اليوم التالي لأصابتي بالطلق الناري، طلب اللواء كياني من الطبيبين إطلاعه على التقدم الذي احرزاه قبل عودتهما لبلدهما، وذلك عندما دخلا عليه وجداه يشاهد أخبار إطلاق النار علي على قناتين، احداهما محلية ناطقة باللغة الأوردية بينما الثانية كانت قناة سكاي نيوز التي تبث باللغة الإنجليزية.

لا تجمع قائد الجيش والطبيب أي صلة قرابة رغم تشاركهما نفس أسم العائلة ولكنهما يعرفان بعضهما جيداً، لذلك قال اللواء للدكتور جاويد إنه قلق من التقارير المتضاربة التي يستلمها

وطلب منه تقييم حالتي قبل عودته إلى المملكة المتحدة. وافقه الدكتور جاويد الذي يعمل مستشاراً لرعاية الحالات الطارئة في مستشفي الملكة اليزابيث الرأي، ولكنه طلب استشارة الدكتورة فيونا حيث انها متخصصة في الرعاية المركزة للأطفال في مستشفى برمنجهام للأطفال. كانت الدكتورة فيونا متوترة من فكرة الذهاب إلى بيشاور التي أصبحت منطقة محظورة على الاجانب، ولكنها سُرت بتقديم المساعدة عندما علمت بأنني أنظم حملة لتعليم البنات وكانت ترى بأنها محظوظة لأنها تعلمت في جامعة مرموقة لتصبح طبيبة.

لم يكن العقيد جنيد ومدير المستشفى مسرورين لرؤية الطبيبين البرياطنين. ودار بعض الجدل إلى أن أوضح دكتور جاويد الأمر بأنه هو من أرسلهما. كما أن الطبيبين البريطانيين لم يكونا مسرورين لحال المستشفى.أولاً فتحا صنبور الماء لغسل يديهما فأكتشفا عدم وجود ماء. ثم فحصت الدكتورة فيونا الآلات والمستويات وهمهمة شيئاً لدكتور جاويد. ومن ثم سألت متى آخر مرة تم فيها فحص ضغط دمي. أتى الرد، "منذ ساعتين". قالت إني بحاجة لفحص ضغط دمي باستمرار وسألت الممرضة لماذا لا توجد القسطرة الشريانية. كما اشتكت من أن مستوى ثاني أكسيد الكربون لدي قليل جداً جداً.

كان أبي مسروراً بأنه لم يسمع ما قالته الدكتورة فيونا للدكتور جاويد. لقد قالت، لقد تم "إنقاذي" – أي لقد أجريت لي العملية الصحيحة في الوقت الصحيح – ولكن فرصتي في الشفاء مرتبطة الآن بالرعاية اللاحقة التي سأتلقاها. بعد عملية المخ والأعصاب من المهم جداً مراقبة التنفس وعملية تبادل الغازات وأن يبقى مستوى ثاني أكسيد الكربون في المعدل الطبيعي. وهذا ما تقوم بمراقبته كافة الأنابيب والآلات. قال دكتور جاويد كان الأمر، "كالتحليق بالطائرة – ويمكن القيام بذلك فقط باستخدام الآلات الصحيحة"، وحتى لو كان المستشفى يمتلكها فلم يتم استخدامها بالشكل الصحيح. ثم تركوا في مروحيتهم لأن البقاء في بيشاور بعد حلول الظلام ليس خياراً آمناً.

كان وزير الداخلية السيد رحمان مالك، من ضمن الزوار الذين حضروا ولم يسمح لهم بالدخول علي. لقد أحضر معه جواز سفر لي. شكره أبي ولكنه كان مستاءاً جداً. وعندما رجع إلى السكن العسكري في تلك الليلة، أخذ الجواز من جيبه وأعطاه لأمي. ثم قال، "هذا لمالالا، ولكني لا أدري ما إذا كانت ستذهب إلى الخارج أم إلى جنات الخلد". وبكيا معاً. ونسبة لإنشغالهما بدوامة المستشفى لم يلاحظ والديّ بأن قصتي قد انتشرت في كافة أنحاء العالم وأن الناس يطالبون بإرسالي للخارج لتلقي العلاج.

لقد تدهورت حالتي ونادراً من يرد أبي الآن على هاتفه. ومن القلائل التي رد عليها أبي، كان اتصالاً من والد عرفة كريم، اليافعة عبقرية الحاسوب المنحدرة من البنجاب، التي كنت اتجاذب معها اطراف الحديث أثناء المنتديات. والتي أصبحت في التاسعة من عمرها أصغر محترف معتمد من مايكروسوفت في العالم لمهارتها في البرمجة، لدرجة إنها دُعيت لمقابلة بيل جيتس في وادي السليكون. ولكن للأسف توفيت في شهر يناير الماضي جراء أزمة قلبية إثر نوبة صرع لم تمهلها طويلاً. كانت في عمر السادسة عشر تكبرني فقط بسنة واحدة. لقد بكى أبي عند سماعه لصوت والدها. وأجهش بالبكاء وقال، "بالله قل لي كيف يعيش المرء من دون بناته".

– القسم ٢٢ –

رحلة إلى المجهول

لقد أُطلقت النار علي في يوم الثلاثاء في وقت الغداء. وبحلول صباح يوم الخميس كان أبي مقتنعاً جداً بأنني سأموت لذلك قال لخالي محمد فايز ينبغي للقرية أن تبدأ في التجهيز لجنازتي. لقد كُنتُ في حالة الغيبوبة، والمؤشرات على أن أظلُ على قيد الحياة متذبذبة، ووجهي وجسمي قد تورما ورئتاي وكليتاي قد دخلا في حالة فشل. وقال لي أبي لاحقاًأنه كان أمراً مرعباً رؤيتي في تلك الحجيرة الزجاجية وكل تلك الأنابيب موصلة بي. فقد كنت ميتة سريرياً في نظره. كان أبي محطماً. وبدأ يفكر بصوت مسموع، "إنها في الخامسة عشر فقط، فمن المبكر جداً أن تغادرنا. هل يمكن أن تكون حياتها قصيرة لهذا الحد؟" وفي ذلك الوقت ما زالت أمي تصلي، وبالكاد نامت. أشار عليها محمد فايز بأن ترتل سورة الحج، جزء من القرآن يتحدث عن الحج، وظلت تقرأ وتعيد الآيات الأثني عشر (٥٨-٧٠) التي تتمحور حول القوة المطلقة لرب العزة. وقالت لأبي بأنني سأعيش ولكنه لا يستطيع فهم ذلك.

عندما عاد العقيد جنيد لفحصي، سأله أبي مرة أخرى، "هل ستنجو؟".

فسأله الطبيب، "هل تؤمن بالله؟"

قال أبي، "نعم". يبدو أن العقيد جنيد رجل ذو عقيدة روحية راسخة. ونصح أبي بأن يتضرع إلى الله وهو كفيل بالاستجابة لصلواته.

في وقت متأخر من مساء يوم الأربعاء حضر براً أثنان من الأطباء العسكريين المتخصصين في العناية المركزة من أسلام أباد. لقد أرسلهما الدكتور كياني بعد أن أبلغه الطبيبين البريطانيين عند عودتهما إليه بأنني سأعاني من تلف في الدماغ أو ربما حتى أموت نتيجة لنوعية الرعاية والمخاطر المرتفعة لإصابتي بالعدوى في حال تركت في بيشاور. كانا يريدان نقلي ولكن أقترحا في نفس الوقت أن يجلب إليّ طبيب بارز لحين أن أنقل.ولكن يبدو أنهما تأخرا كثيراً .

لم ينفذ طاقم المستشفى أي من التغيرات التي أوصت بها الدكتورة فيونا، وبأنقضاء الليلة كانت حالتي قد تدهورت. لقد بدأت العدوى تُصيبني. بحلول صباح الخميس أتصل أحد الأطباء الأخصائيين ويدعى العميد إسلام بالدكتورة فيونا، وقال لها، "مالالا مريضة جداً الآن". لقد حدث لي

ما يعرف بالتخثر المنتثر داخل الأوعية الدموية، وهو ما يعني بأن دمي لا يتجلط، وأن ضغط دمي منخفضاً جداً، وأن أحماض دمي مرتفعة. وأنني لم أعد أتبول بتاتاً لذا فأن كليتاي في حالة فشل وقد أرتفعت مستويات اللاكتيت[١٠]. يبدو أن كل ما متوقع أن يسوء، قد ساء بالفعل. كانت الدكتورة فيونا على وشك أن تتحرك إلى المطار لتعود إلى برمنجهام جواً، وبالفعل وصلت جميع حقائبها إلى المطار، ولكنها قررت البقاء لتقديم المساعدة بعدما سمعت الأخبار وكذلك بقيت معها ممرضتين من مستشفاها في برمنجهام. وعادت الدكتورة فيونا مرة أخرى إلى بيشاور في وقت الغداء من يوم الخميس. قالت لأبي كان من المفترض أن أنقل بالجو إلى المستشفى العسكري في روالبندي الذي توجد به أفضل وحدة عناية مركزة. لم يكن أبي يستوعب كيف يمكن لطفل مريض جداً أن يسافر بالطائرة، ولكن الدكتورة فيونا طمأنته قائلة بأنها تفعل هذا الأمر على الدوام فلا داعي للقلق. وسألها إن كان يوجد أمل لي في الحياة. وردت عليه قائلة، "إن لم يك يوجد أمل فلم يكن لتجدني هنا". قال أبي أنه لم يستطيع كبح دموعه في تلك اللحظة.

في وقت لاحق من ذلك اليوم جاءت إحدى الممرضات ووضعت قطرات في عيني. قالت أمي، "أنظر، "خايسيتا""[١١]. يبدو أن الدكتورة فيونا محقة لأن الممرضات وضعن قطرة العين في عيني مالالا. لم يُكن ليضعن هذه القطرات لو لم يكن هناك أمل". ذهبت الدكتورة فيونا للإطمئنان على شادية، إحدى الفتيات الأخريات اللاتي أصبن في إطلاق النار، والتي نقلت إلى ذات المستشفى الذي اتعالج فيه. وقالت لأبي أن شادية بخير وقد ترجتها بأن، "تعتني بمالالا".

نقلنا إلى مهبط المروحية بواسطة سيارة الإسعاف تحت إجراءات أمنية مشددة تضمنت موكب مرافقين على دراجات بخارية تضيء الأضواء الزرقاء. استغرقت رحلة الطائرة ساعة وخمسة عشر دقيقة. وطوال هذه المدة كانت الدكتورة فيونا مشغولة للغاية بكل الآلات المتعددة وبالكاد جلست، وكأنها في خضم معركة حامية الوطيس مع هذه الآلات، هكذا بدى الأمر لأبي. كانت تقوم بعملها بكل حنكة لأنها تمارسه منذ سنوات. حيث أن نصف عملها في بريطانيا هو نقل الأطفال ذوي الحالات الحرجة، والنصف الآخر في معالجتهم في غرف العناية المركزة. ولكنها لم تكن أبداً في موقف مشابهة تماماً لهذا الموقف. لم يكن ذلك فقط بسبب أن بيشاور خطرة على الغربيين، ولكنها أدركت بأن الأمر ليس بحالة عادية وذلك بعد أن بحثت عني في "غوغل". وبعد

[١٠] الحمض اللبني.
[١١] يا وسيم.

ذلك قالت، "إن حدث لها أي شيء فحتماً ستلام المرأة البيضاء. فإن توفيت فأكون قد قتلت الأم تيريزا الباكستانية".

وما أن هبطنا في روالندي حتى أُخذنا بسيارة الإسعاف وبمرافقة عسكرية مرة أخرى إلى مستشفى يسمى "معهد القوات المسلحة لأمراض القلب". كان أبيمنزعجاً جداً وتسائل – كيف لهم أن يعرفوا كيفية التعامل مع إصابات الرأس. ولكن الدكتورة فيونا أكدت له بأن هذا المستشفى به أفضل غرفة عناية مركزة في البلاد مزودة بأحدث المعدات في هذا المجال وبأفضل الأطباء المتعلمين في بريطانيا. كما أن الممرضات اللاتي يعملن معها في برمنجهام كن منتظرات هناك وقد أوضحت لممرضات أمراض القلب الإجراءات الدقيقة للتعامل مع إصابات الرأس. لقد أمضوا معي الساعات الثلاثة التالية، يبدلون المضادات الحيوية التي تعطى لي وقسطرة وريدي، حيث يبدو أن استجابتي لنقل الدم كانت سيئة للغاية.وأخيراً قالوا بأن حالتي قد استقرت.

لقد تم تأمين المستشفى بشكل كامل. حيث نشرت كتيبة كاملة من الجند لحراسته، وتمأيضاً نشر القناصة على أسطح المباني. لم يسمح لأحد الدخول؛ وأُلزم الأطباء بأرتداء الزي الرسمي؛ ولم يزور المرضى إلا أقرب الأقربين، وقد أخضعوا جميعهم لإجراءات تفتيش أمني صارمة. وتم تعيين رائد من الجيش لمرافقة والديّ وتتبعهما إينما ذهبا. كان أبي خائفاً وظل خالي يردد، "كن على حذر،ربما يكون أحد هؤلاء الأشخاص عميلاً سرياً لطالبان". خصصت لعائلتي ثلاث غرف في نادي الضباط. ولدواعي أمنية، بحسب زعمهم، تمت مصادرة الهواتف المتحركة لكافة الناس، ولكن ربما تم ذلك لتقييد تواصل أبي مع وسائل الإعلام. وفي كل مرة يرغب والديّ فيها المشي من السكن إلى المستشفى فإنهما يضطرا إلى استخدام جهاز اللاسلكي للتأكد من الحالة الأمنية في المنطقة، وعادة ما يستغرق هذا الأمر نصف ساعة. كما تتم حراستهما أيضاً أثناء عبورهما لحديقة السكن في طريقهما لغرفة الطعام. ولا يمكن للزوار الدخول، حتى أن رئيس الوزراء بشخصه لم يسمح له بالدخول عندما حضر لرؤيتي. بدت التدابير الأمنية مذهلة، إلا أن طالبان استطاعت على مدى الثلاث سنوات الماضية التسلل والهجوم على أكثر المنشآت العسكرية حراسةً مثل القاعدة البحرية في مهران، وقاعدة القوات الجوية في كامرا، ومقر قيادة الجيش التي تقع في آخر الطريق.

كنا جميعاً في خطر من هجمات طالبان. وقيل لأبي أن أخواليّ أيضاً ليسا بمنأى عن الخطر. وأعرب عن قلقه الشديد لأن خوشال في ذلك الوقت لا يزال في مينغورا، بالرغم من أنه قد أُحضر إلى روالبندي في وقت لاحق للإنضمام إليهم. لم يكن يوجد بالسكن حواسيب أو أنترنت إلا أن طباخةً لطيفة تدعى ماما ياسم درجت على أن تحضر لعائلتي الصحف وكل ما يحتاجونه. وقالت

لهم، "أنها شعرت بالفخر والاعتزاز بإعدادها طعام عائلي". كانوا متأثرين جداً بلطافتها ودماثة خلقها مما حدا بهم مشاركتها قصتنا. كانت تريد أن تعاضدهم بالطعام وتسهل معاناتهم. لم تكن لديهم شهية لذلك فهي تحاول إغرائهم بأطباق وكاستر وحلويات أكثر لذة مما سبق أن قدمتهم لهم. وفي واحدة من أوقات تناول الطعام قال خوشال، أن طاولة الطعام تبدو فارغة بوجودهم الأربعة فقط. وأنهم شعروا بأنها غير مكتملة من دوني.

لأول مرة قرأ أبي بعضاً من ردة الفعل الدولية التي لا تصدق حول إطلاق النار علي في إحدى الصحف التي تحضرها ياسم. يبدو الأمر كأن غضب عارم اجتاح الكون. وصف بان كي مون، الأمين العام للأمم المتحدة ما حصل بأنه، "عمل شنيع وجبان"، أما الرئيس أوباما وصفه بأنه، "مشجوب ومأساوي ومثير للإشمزاز". إلا أن بعض ردود الفعل من باكستان لم تكن إيجابية جداً. كما أن بعض الصحف رأتني "رمزاً للسلام"، إلا أن البعض الآخر تحدث بنظرية المؤامرة المعتادة، وتساءل بعض المدونين أحقاً اطلقت النار علي! قد رُويت حولي كل أنواع القصص، خاصة في الصحف الناطقة باللغة الأردية، حيث ذكرت إحداها بأنني قد انتقدت تربية اللحى. كما أن البرلمانية الدكتورة رحيمة غازي من حزب أمة الاسلام الديني كانت من أكثر الأصوات المناهضة لي، ووصفتني بأني جاسوسة لأمريكا وعرضت صورة لي وأن جالسة بجوار السفير الأمريكي ريشارد هولبروك كدليل على "علاقتي المباشرة مع السلطات العسكرية الأمريكية!"

مثلت الدكتورة فيونا أكبر مواساة لنا. وبما أن أمي لا تتحدث سوى لغة البشتو لذلك فهي لا تفهم أي شيء مما تقوله، ولكن فيونا أومأت بإبهامها بإدارته لأعلى عندما خرجت من غرفتي وقالت، "جيد". لقد اصحبت بمثابة رسولاً لوالدايّ وليس طبيباً فقط. وإنها تمنت أن تجلس معهما بكل أناءة، وعندئذ ستطلب من أبي أن يشرح لأمي كافة التفاصيل. كان أبي مندهشاً ومسروراً – لأن في بلدنا قليل جداً من الأطباء من يتكبد عناء شرح أي شيء لإمرأة غير متعلمة. كما سمع والدايّ العروض التي تنهال من الخارج لعلاجي بما فيها عروض من أمريكا، حيث عرض مستشفى يعد أحد أفضل المستشفيات يدعى جونز هوبكنز علاجي مجاناً. كما عرض بعض المواطنين الأمريكيين المساعدة بصفة شخصية، بما فيهم السانتور جون كيري الرجل الثري الذي زار باكستان عدة مرات، وعضوة الكونغرس السيدة جابرييل جيفوردز التي سبق أن أصيبت بالرصاص في رأسها أثناء حضورها لإجتماع للناخبين في مركز تجاري في أريزونا. كما كانت توجد عروض أيضاً من ألمانيا، سنغافورا، الإمارات العربية المتحدة ومملكة البحرين.

لم تتم استشارة أبي وامي حول ما يجب أن يحدث لي. كل القرارات كانت تتخذ من قبل الجيش. طلب اللواء كياني رأي الدكتور جاويد فيما إن كان ينبغي إرسالي للخارج أم لا. كان قائد الجيش يكرسقدراً كبيراً من وقته للمسألة، حيث قال دكتور جاويد إنهم قد أمضوا ستة ساعات في مناقشة أمري! ربما أكثر من أي سياسي آخر فإنه يفهم الآثار السياسية إذا لم تكتب لي النجاة. وكان يأمل تكوين توافق سياسي يدعم هجوم شامل على حركة طالبان. ولكن المقربين منه يقولون أنه رجل رحيم أيضاً. لقد تُوفي والده في عمر الشباب وكان والده جندي بسيط، وبحكم أنه الأبن البكر لثمانية أخوة فقد تحمل مسؤولية الأسرة بأكملها. وأول شيء فعله اللواء كياني بعد توليه قيادة الجيش هو تحسين مستوى السكن والحصص الغذائية والتعليم للجنود بدلاً من الضباط.

قالت الدكتورة فيونا من المرجح أن أعاني من إعاقة في الكلام وضعف في ذراعي اليمنى وكذلك ساقي اليمنى، لذلك فإنني بحاجة إلى مرافق إعادة تأهيل واسعة النطاق، وهو الأمر الذي تفتقر إليه باكستان. وأردفت ناصحةً "إذا كنت جاداً في الحصول على أفضل النتائج الممكنة، فخذها إلى الخارج". كان اللواء كياني يصر على عدم مشاركة الأمريكيين نسبة لسوء العلاقات المتنامي بين البلدين بعد حلقة ريموند ديفيس والإغارة على بن لادن، بالإضافة إلى قتل مروحية أمريكية لعدد من الجنود الباكستانيين في موقع حدودي. أقترح الدكتور جاويد مستشفى جريت أورمان استريت في لندن، ومستشفيات متخصصة في جلاسكو وأدنبره. وتساءل اللواء كياني، "لماذا لا ترسل إلى مستشفاكي؟" كان الدكتور جاويد يعرف بأن هذا الأقتراح سيكون حاضراً على الطاولة. حيث من المعروف أن جرحى الجنود البريطانيين في أفغانسان والعراق تتم معالجتهم في مستشفى الملكة إليزابيث في برمنجهام. كما أنه يوفر المزيد من الخصوصية لوجودهبعيداً عن وسط المدينة. وأتصل برئيسه السيد كيفن بولغر الرئيس التنفيذ للمستشفى. سرعان ما أبدى موافقته على أنه كان الإجراء الصحيح الذي ينبغي فعله، ومع ذلك قل لاحقاً، "لم يتصور أي منا فقط المدة التي يمكن أن تقضيها في المستشفى". إن مسألة نقلي كفتاة قاصر وأجنبية إلى مستشفى الملكة اليزابيث لم يكن بالأمر الهين، وسرعان ما وجد السيد بولغر نفسه مكبلاً بعراقيل البيروقراطية البريطانية والباكستانية. وفي غضون ذلك كان الوقت يمر سريعاً. بالرغم من أن حالتي بدت مستقرة، إلى أنه يبدو بأنني في حاجة ماسة لكي أرحل خلال ثمانية وأربعين ساعة وعلى أكثر تقدير أثنين وسبعين ساعة.

وأخيراً تم إعطاء الضوء الأخضر بنقلي وعلى الأطباء الآن مواجهة مشكلة كيفية النقل ومن الذي يتولى النفقات. أقترح دكتور جاويد الحصول على عرض أسعار من القوات الجوية

الملكية حيث أنها معتادة على نقل جرحى الجنود البريطانين من أفغانستان، إلا أن اللواء كياني رفض ذلك. لقد استدعى الدكتور جاويد إلى أجتماع يعقد في منزله في وقت متأخر من الليل. وكالمتعاد كان يدخن السيجارة تلو الأخرى، وقد أخفى الأمر لآخر لحظة ثم أوضح بأنه لا يريد أن قوات أجنبية أن تتدخل في الأمر. كان هناك بالفعل الكثير من نظريات المؤامرة تحوم حول مسألة إطلاق النار علي، ويتهمني بعض الناس بالعمالة للمخابرات المركزية الأمريكية وأشياء من هذا القبيل، كما أن قائد الجيش لا يريد أن يذكي هذه النعرات. تركت هذه الأمور دكتور جاويد في موقف صعب. لقد عرضت الحكومة البريطانية المساعدة ولكنها بحاجة إلى طلب رسمي من الحكومة الباكستانية. ولحسن الحظ تدخلت الأسرة الحاكمة في دولة الإمارات العربية المتحدة في هذه المرحلة. وعرضوا طائرتهم الخاصة المجهزة بمستشفى مكتمل. وكان من المقرر أن أنقل من باكستان لأول مرة في حياتيجواً في الساعات الأولى من صباح الأثنين الموافق الخامس عشر من أكتوبر.

لم يكن لدى والدايّ أدنى فكرة عن هذه المفاوضات وإنما كانا يعرفان بأن المناقشات جارية لنقلي للخارج. ومن الطبيعي أن يفترضا مرافقتي لأي مكان سأرسل إليه. لا تملك أمي ولا أخوتي جوازات سفر أو أي وثائق رسمية. وبعد ظهر يوم الأحد أخبر العقيد أبي بأنني سأغادر إلى بريطانيا في صباح الأثنين وبمرافقته هو فقط، ولن يرافقني أمي وأخوتي. وأضاف بوجود مشكلة في استخراج جوازاتهم، كما نصحه بأن لا يخبر بقية الأسرة بأنه مسافر وذلك لدواعي أمنية.

وبما أن أبي قد أعتاد على أن يتشارك أي شيء مع أمي لذا فلا توجد أي طريقة لإخفاء هذا الأمر عليها، وبقلب مثقل بالأسى أخبرها بالأمر. كانت أمي جالسة مع خالي محمد فياض، الذي كان غاضباً وقلقاً بشأن سلامتها وسلامة أخوتي. "إن كانت ستبقى لوحدها مع أثنين من الصبية في منغورا، فيمكن أن يحدث لهم أي شيء!" ثم قال أبي للعقيد، "أنني قد أخبرت العائلة وأنهم جد مستائين. ولا يمكنني أن أتركهم". ونسبة لأنني قاصر ولا يمكن إرسالي لوحدي فقد سبب هذا الأمر مشكلة كبرى، وتدخل الكثير من الناس لمحاولة إقناع أبي بمرافقتي، بما فيهم العقيد جنيد، والدكتور جاويد والدكتورة فيونا. ولكنه لم يستجيب لدفعه للسفر وظل ثابت على رأيه بالرغم من أنه أصبح جلياً بأنه قد خلق الآن حالة من الفوضى. وأوضح لدكتور جاويد، "أبنتي الآن في أيدي أمينة، وذاهبة لبلد آمن. لا يمكنني ترك زوجتي وابنايً لوحدهم هنا، حيث أنهم معرضين لمخاطر كبيرة. ما حصل لأبنتي فقد حصل وهي الآن بين يدي الله. فأنا أب – أبنايّ مهمين بمثل درجة أهمية أبنتي". ولكن هذا التعليل لم يقنع دكتور جاويد فطلب مقابلة أبي على إنفراد. وسأله، "هل أنت واثق

أنه السبب الوحيد الذي يمنعك من الذهاب؟ كان يريد التأكد من عدم تعرض أبي لأي ضغوط تحول دون سفره.

قال له أبي، "إن زوجتي قالت لي، "لا يمكنك الذهاب وتركنا هنا". وضع الطبيب يده على كتف أبي وطمأنه بأنه سيتكفل برعايتهم ويمكنه الوثوق به. قال أبي، "أليس هذا بمعجزة أن تتواجدوا جمعيكم هنا عندما أطلقت النار على مالالا؟"رد عليه الدكتور جاويد قائلاً، "في إعتقادي أن الله أرسل الحل أولاً والمشكلة لاحقا".

عند هذه المرحلة وقع أبي وثيقة "ولاية الأمر" التي بموجبها خول الدكتورة فيونا الوصاية علي خلال رحلتي إلى بريطانيا. وانهمرت دموع أبي عندما سلمها جواز سفري وشد على يدها قائلاً، "فيونا، إني أثق فيكي. أرجوك الأهتمام بأبنتي".

ثم وقف والدايَ بجوار سريري ليودعاني. وكان ذلك في حوالي الحادية عشر مساءاً عندما شاهداني لآخر مرة في باكستان. لم أكن أستطيع الكلام، وكانت عيناي مغمضتان ولم يشعرهما شيء بأنني حية سوى تنفسي. بكت أمي، ولكن أبي حاول تهدئتها حيث شعر أنني قد تعديت الآن مرحلة الخطر. لقد مرت كل تلك المواعيد التي أعطيت في البداية بسلام – عندما قالوا أن الخطر يكمن في الساعات الأربع والعشرين القادمة، ثم أن الساعات الثمانية والأربعين حاسمة، والأثنين والسبعين هي الحرجة. لقد تحسنت مستويات دمي وتقلص الانتفاخ. وتيقنت عائلتي بأن الدكتورة فيونا والدكتور جاويد سيوفران لي أفضل عناية ممكنة.

لم يتمكن أفراد عائلتي بعد عودتهم لغرفهم من النوم إلا ببطء شديد. وبعد منتصف الليل مباشرة طرق شخص على بابهم. كان الطارق أحد العقداء الذين حاولوا في وقت سابق إقناع أبي بالسفر إلى المملكة المتحدة وترك أمي خلفه. قال لأبي أنه مما لا شك فيه كان عليه السفر معي أو ربما لم أكن لأغادر على الإطلاق. رد عليه أبي قائلاً، "لقد قلت ليلة أمس أن هذه المشكلة قد سويت. لماذا أيقظتني؟ لن أترك عائلتي." ومرة أخرى تم أستدعاء أحد المسؤولين للتحدث مع أبي. حيث قال، "يجب أن تذهب. فأنت والدها فإن لم ترافقها فلربما لا يتم إدخالها المستشفى في المملكة المتحدة. أصر أبي على موقفه وقال، "ما حدث قد حدث، لن أغير رأيي. سنلحق بها جميعاً خلال أيام بعد الإنتهاء من تجهيز وثائق السفر". عندها قال العقيد، "هيا بنا نذهب إلى المستشفى حيث يوجد وثائق أخرى للتوقيع".

لقد مضى أكثر من نصف الليل، فأرتاب أبي في الأمر وكان خائفاً. لم يكن يريد أن يذهب لوحده مع المسؤولين لذا فقد أصر على أن تذهب أمي أيضاً.لقد كان أبي قلقلاً جداً لذلك ظل طوال

الوقت يردد أيات من القرآن الكريم مراراً وتكراراً. كانت الأيات لقصة سيدنا يونس الذي ابتلعه الحوت مماثلة لقصة يوحنا الواردة في الإنجيل. كان سيدنا يونس يتلو هذه الأيات وهو في بطن الحوت. فإنها تطمئننا نحن المسلمون بوجود مخرج من أسوأ المتاعب والأخطار إذا ما استمسكنا بإيماننا. وعندما وصلوا المستشفى قال العقيد لأبي، أن عليه التوقيع على بعض الوثائق الأخرى إذا كان سيسمح لي بالسفر إلى المملكة المتحدة. كان الأمر بهذه البساطة. شعر أبي بإنزعاج شديد وخوف للسرية التي تتم بها جميع الترتيبات، وزاده ذعراً قلة حيلة عائلتنا وسط كل هؤلاء الرجال المرتدين للزي العسكري المنتشرين في كل مكان، وأن المسألة أخذت أكثر من حجمها، وإن الأمر برمته بنظره ليس سوى مسألة بيرواقراطية فاشلة.

عندما عاد والدايّ إلى السكن في نهاية المطاف كانا مثقلي القلب. لم يكن أبي يرغب في أن أذهب في جولة إلى بلد غريب دون أن تكون عائلتي هناك.كان قلقاً جداً من حالة التشويش التي سأكون عليها. حيث أن حافلة المدرسة هي آخر شيء سأتذكره، لذا إنه كان في غاية الإضطراب من أن أشعر بتخليهم عني.

في تمام الساعة الخامسة من صباح يوم الأثنين الموافق للخامس عشر من أكتوبر أُخِذت بعيداً عن المستشفى بمرافقة مسلحة. حيث أغلق الطريق المؤدي إلى المطار وأنتشر القناصة على أسطح المباني على طول أمتداد الطريق. كانت الطائرة الإماراتية جاثمة على أرض المطار تنتظرني. وقد قيل لي بأنها في قمة الرفاهية ومجهزة بسرير مزدوج فاخر، ومقصورة درجة أولى مكونة من ستة عشر مقعداً، ومستشفى مصغر في الجزء الخلفي يديره طاقم تمريض أوربي بقيادة طبيب ألماني. ووددت لو كنت في وعيي لأستمتع بهذه الرحلة. وطرنا إلى أبوظبي للتزود بالوقود ثم أتجهنا إلى برمنجهام حيث هبطنا فيها في وقت متأخر من بعد الظهر.

في هذه الأثناء ظل والدايّ ينتظران في السكن. لقد ظنا أن جوازي سفرهما وتأشيرتيهما قيد الإجراء وأنهم سيلحقان بي في غضون أيام قلائل. ولكنهما لم يسمعا أي خبر. لم يكن بحوزتهما هاتف أو مدخل إلى الأنترنت لمتابعة حالتي. لقد شعرا بأنه إنتظار بلا نهاية.

الجزء الخامس

حياة ثانية

وطن زما زه د وطن يم – كه د وطن د ياره مرم خوشحاله يمه

Watan zama za da watan yam

Ka da watan da para mram khushala yama

أنا رجل وطني وأحب بلدي

ولهذا بكل سرور أضحي بكل ما أملك

-القسم ٢٣-

"الفتاة التي أُطلقت عليها النار في الرأس، برمنجهام"

أفقت في اليوم السادس عشر من شهر أكتوبر أي بعد أسبوع من حادثة إطلاق النار. وجدت نفسي على بعد آلاف الأميال من وطني وأتنفس بواسطة أنبوب مركب في عنقي ولم أكن استطيع الكلام. لحظتها كنت في طريق عودتي إلى غرفة العناية المركزة بعد أن أخذت لي صورة أشعة مقطعية أخرى، وكنت سابحةً بين عوالم الإدراك والنوم إلى أن استيقظت تماماً.

"شكر الله العلي القدير على أنني ما زلت حية" كان هو أول شيء فكرت فيه بعد أن استعدت وعي. ولكن لم تكن لدي أدنى فكرة عن مكان وجودي، إلا أني عرفت بأنني لست في بلدي. وبالرغم من أن الأطباء والممرضين يتحدثون باللغة الإنجليزية، إلا أنه يبدو للجميع أنهم من عدة دول. كنت أتحدث إليهم ولكن يبدو أن لا أحداً قد سمعني وذلك بسبب الأنبوب الموجود في عنقي. دعوني أبدأ بوصف حالتي؛ كانت الرؤية في عيني اليسرى ضبابية ويبدو لي أن كل شخص لديه أنفين وأربعة أعين. وجالت بعقلي الواعي كافة أنواع الأسئلة: أين كنت؟ من الذي أحضرني إلى هناك. أين يوجد والديّ؟ هل أبي على قيد الحياة؟ لقد كنت مرتعبةً.

تحدث إليّ الدكتور جاويد، الذي كان موجود لحظة إحضاري، بالأردية قائلاً، "أنه لن ينسى أبداً نظرة الخوف والحيرة التي ارتسمت على محياي". إن الشيء الوحيد الذي أدركته في تلك اللحظة أن "الله العلي القدير قد تفضل علي بحياة جديدة". تناولت يدي سيدة لطيفة ترتدي حجاباً على رأسها وسلمت علي بتحيتنا المعتادة في الإسلام قائلةً، "السلام عليكم". ثم بدأت بتلاوة آيات من الذكر الحكيم وتتضرع إلى الله بالأردية. أخبرتني بأن أسمها ريحانا وأنها بمثابة واعظة دينية للمسلمين. لقد كان صوتها ناعماً وكلماتها مهدئةً مما حدا بي أن أجنح إلى النوم مجدداً. لقد حلمت بأنني لم أكن حقاً في المستشفى.

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي لاحظت بأنني موجودة في غرفة خضراء غريبة وليس بها أي نوافذ وساطعة الأضواء بشكل أخاذ. كان هذا المكان، حجيرة عناية مركزة في مستشفى الملكة إليزابيث. وليس كمثل المستشفى في منقورا، إن كل شيء هنا في غاية النظافة واللمعان. ثم ناولتني إحدى الممرضات قلم رصاص ولوحة مسودات. لم أكن أستطيع الكتابة بشكل

جيد. وكانت الكلمات تخرج من فمي بطريقة خاطئة. لقد أردت أن أكتب رقم هاتف أبي، ولكني لم استطيع أن أترك مسافات بين الحروف. لذا أحضر لي دكتور جاويد لوحة بالحروف الأبجدية حيث يمكنني أن أشير إلى الحروف. "أبي وبلدي" كانت أول الكلمات التي تلفظت بها بوضوح. أخبرتني الممرضة بأنني في برمنجهام، ولكن ليست لدي أي فكرة عن موقع هذا المكان. وعرفت لاحقاً فقط عندما أحضروا لي أطلساً بأنه يقع في بريطانيا. لم أكن أدري بالذي حدث، ولم تخبرني الممرضات أي شيء. حتى أسمي، أما زال كما هو مالالا؟

كان رأسي يؤلمني بصورة مبالغة حتى الحقن التي أعطيت لي لم تفلح في كبح الألم. ظلت أذني اليسرى تنزف وبدت يدي اليسرى مضحكّة. وظل الأطباء والممرضات يترددوا في الدخول والخروج. طرحت علي الممرضات بعض الأسئلة وطلبن مني أن أغمز بعيني مرتين للإجابة بنعم. لم يخبرني أحد بما يجري أو بمن أحضرني إلى المستشفى. وأعتقد بأنهم أنفسهم لا يدرون. يمكنني أن أشعر بأن الجانب الأيسر لوجهي لا يعمل بشكل طبيعي. حيث أن عيني اليسرى تدمع إذا أطلت النظر إلى الأطباء أو الممرضات. ويبدو لي بأنني غير قادرة على السماع بأذني اليسرى، كما أن فكي الأيسر لا يتحرك بشكل معتاد. لذا أومأت للناس للوقوف على جانبي الأيمن حتى أتمكن من التواصل معهم.

ثم حضرت سيدة لطيفة تدعى الدكتورة فيونا وأعطتني دمية دبدوب بيضاء اللون. وطلبت مني أن أدعوه "جنيد" وستوضح لي السبب لاحقاً. لم أكن أعرف من يكون هذا "الجنيد"، لذا سميته ليلى. كما جلبت لي أيضاً دفتر تمارين وردي اللون لكي أكتب عليه. أول سؤالين خطهما قلمي، "لماذا أنا بلا أب؟ وأبي ليس لديه مال. من سيتحمل كل هذه التكاليف؟" ردت عليّ، "أبيك بأمان. إنه في باكستان. ولا تقلقي بشأن الدفع". كررت نفس الأسئلة على أي شخص دخل عليّ. وردوا جميعاً بمثل قولها. ولكن ذلك لم يقنعني. لأنه ليست لدي أدنى فكرة عما جرى لي، كما أنني لا أثق في أحد. فإن كان أبي بخير، فلماذا لا يوجد بجواري هنا؟ لقد اعتقدت أن والديّ لا يدريان مكان وجودي وربما يبحثان عني في "شوك [١٢]" وبازارات [١٣] منقورا. لم أكن أصدق أن والديّ آمنيّن. تلك هي الأيام الأوائل التي ظل فيها عقلي منساقاً في الانغماس والخروج من عوالم الأحلام. ظللت استرجع الذكريات عندما كنت مستلقية على سرير ويتحلق حولي رجال، رجال كثر جداً بدرجة يتعذر

[١٢] حواري أو حارات.
[١٣] أسواق.

إحصائهم، وكنت أتساءل، أين أبي؟ اعتقدت بأن النار قد أُطلقت عليّ ولكني لست متأكدة – أين هذه الذكريات والأحلام؟

كنت مهووسة بمعرفة تكلفة هذه الخدمات. لقد أنفقنا كل الأموال التي حصلنا عليها من الجوائز على المدرسة وشراء قطعة أرض في قريتنا شانجلا. كنت أعتقد كلما رأيت الأطباء يتحدثون إلى بعضهم البعض بأنهم يقولون، "لا تملك مالالا المال. ولا يمكنها دفع تكاليف معالجتها".كان أحد الأطباء بولندياً وبدأ حزيناً على الدوام. واعتقدت أنه مالك المستشفى وأنه غير مسرور لأنه ليس بمقدوري الدفع. لذا أومأتُ لإحدى الممرضات لإعطائي ورقة وكتبتُ، "لماذا أنت حزين؟ فرد قائلاً، "لا لست حزيناً". وكتبتُ، "من الذي سيدفع التكاليف؟ لا نملك أي مال". فرد، "حكومتك ستدفع، فلا تقلقي". ومن بعدها ظل يبتسم دائماً عندما يراني.

كنت دائماً أفكر في إيجاد حلولاً للمشاكل لذا فكرت في النزول إلى مكتب الاستقبال وإيجاد هاتف للاتصال بأمي وأبي. ولكن عقلي كان يقول لي، إني لا أملكمالاً لأدفع ثمن المكالمة الهاتفية كما أني لا أعرف مفتاح الخط الدولي. ثم فكرت، إنني بحاجة للخروج من هنا ومزاولة عمل ما لأجني المال حتى أتمكن من شراء هاتف والاتصال بأبي لكي يجتمع شملنا من جديد. لقد كانت الأشياء مختلطة في ذهني بشكل عجيب. حتى أنني اعتقدت أن دمية الدب التي أهدتني إياها الدكتورة فيونا كانت خضراء اللون وأنها قد استبدلت بأخرى بيضاء. وبالرغم من إخباري مراراً وتكراراً بأنه لم تكن هناك أي دمية دب خضراء، إلا إنني ظللت أتساءل، "أين دمية الدب الخضراء؟" ربما كان وهج اللون الأخضر لجدران غرفة العناية المركزة هو العالق في ذاكرتي، ولكني ما زلت مقتنعة بوجود الدمية الخضراء.

استمريتُ في نسيان الكلمات الانجليزية. وفي إحدى المرات كتبت للممرضات، "أريد سلكاً لتنظيف أسناني"حيث شعرت كأن شيئاً عالقاً بينها، بينما في الواقع كان قصدي "خيطاً". في الحقيقة إن أسناني كانت جيدة وإنما كانت تشوب لساني حالة من الخدر. حضور ريحانا هو الشيء الوحيد الذي كان يهدئني. وقرأت ريحانا آيات الشفاء وبدأت أحرك شفتاي قائلةً "آمين" – (كلمة الإسلام المرادفة لـ "أيمين" في المسيحية) على بعض من هذه الآيات. ظل التلفاز في حجرتي مغلقاً باستثناء مرة واحدة عندما سمحوا لي بمشاهد برنامج "رئيس الطهاة" الذي اعتدت على مشاهدته في منقورا وأحببته ولكن كان كل شيء ضبابي بالنسبة لي. إلا إنني قد علمت لاحقاً بأن الناس ممنوعين من إحضار الصحف أو البوح لي بأي شيء حيث أن الأطباء خائفين من أن يلحق ذلك بي الأذى.

كنت مذعورة من فكرة أن يكون أبي ميتاً. ثم أحضرت فيونا صحيفة باكستانية صادرة في الأسبوع الماضي توجد بها صورة لأبي وهو يتحدث إلى اللواء كياني مع شخصية ترتدي شال تجلس للخلف بجوار أخي. وكتبت لهم، "إنها أمي"، حيث يمكنني رؤية قدميها فقط. ثم حضر الدكتور جاويد في وقت متأخر من ذلك اليوم حاملاً هاتف متحرك في يده. وقال، "سنقوم بالاتصال بأبيك". أشرقت عيناي من فرط الإثارة.فوجهني قائلاً، "لا تنتحبين، لا تزرفين الدموع".كان فظاً ولكنه رقيق جداً، كأنه كان يعرفني من المهد. "سأعطيك الهاتف المتحرك، كوني قوية الشكيمة". أومأت براسي بالموافقة.وطلب الرقم، وتحدث قليلاً ثم أعطاني الهاتف.

وكان هناك صوت أبي. لم أتمكن من التحدث معه بسبب الأنبوب المثبت في عنقي. ولكني سررت جداً لسماع صوته. لم استطيع أن أرسم ابتسامة بسبب وجهي، ولكن بدأ الأمر كأنه كانت هناك ابتسامة في داخلي. وعدني أبي، "سأحضر قريباً، استريحي الآن وسنكون بجوارك خلال يومين".واخبرني دكتور جاويد لاحقاً بأنه قد طلب من أبي عدم البكاء حيث أن ذلك الأمر يزيد من إمعاننا جميعاً في الحزن. يريد منا الطبيب أن نكون أقوياء لكي نعاضد بعضنا البعض. لم تستمر المكالمة طويلاً لأن والديّ لا يرغبان في إرهاقي. وفي الختام باركتني أمي بالصلوات.

ما زلت أفترض أن سبب عدم وجودهما بجواري هو عدم امتلاك أبي للمال لدفع تكاليف معالجتي. لهذا السبب هو موجود في باكستان، لكي يبيع مدرستنا وكذلك أرضنا في القرية. ولكن أرضنا صغيرة وأنا عارفة أن مدرستنا ومنزلنا مستأجرين، إذن ماذا يمكنه أن يبيع؟ وربما كان يحاول أن يقترض بعض المال من بعض الأغنياء.

*

لم يكن والديّ مطمئنين تماماً رغم تلك المكالمة. في الواقع لم يسمعا صوتي وإنهما لا يزالان منقطعين عن العالم. كما أن الأشخاص الذين يزرونهم يأتون بمعلومات متضاربة. حيث أن اللواء غلام قمر قائد العمليات العسكرية في وادي سوات كان أحد هؤلاء الزوار. قال لأبي، "توجد أنباء جيدة قادمة من المملكة المتحدة.نحن سعداء جداً بنجاة ابنتنا". وقال "ابنتنا" لأنه ينظر إلي الآن كـ "ابنة الأمة" كلها.

قال اللواء لأبي، "إنهم يجرون بحثاً دقيقاً من منزل لمنزل في كافة أنحاء وادي سوات ويراقبون الحدود. وأضاف أنهم عرفوا أن الأشخاص الذين استهدفوني كانوا من عصابة مكونة من

أثنين وعشرين من رجال طالبان وهم نفس العصابة التي هاجمت صديق أبي، زاهد خان، الذي أقتيل قبل شهرين". لم يقل أبي أي شيء ولكنه كان غاضباً. ظل الجيش يردد منذ سنين طويلة بأنه لا وجود لطالبان في منطقة منقورا وأنه قد طردوهم جميعاً خارجها. وهذا اللواء يقول له الآن يوجد منهم أثنين وعشرين رجلاً في مدينتنا منذ ما لا يقل عن شهرين. كما أن الجيش أصر على أن زاهد خان قد قضى جراء ضغينة عائلية وليس بيد طالبان. ويقولون الآن أنني قد استهدفت من قبل نفس جماعة طالبان كما حصل معه. كان أبي على وشك أن يقول، "لقد علمت أن طالبان موجودة في الوادي منذ شهرين، وعلمت بأنهم يريدون أن يقتلوا أبنتي. ولكنك لم تردعهم؟" ولكنه أدرك أن هذا الكلام لا يوصله إلى شيء.

إلا أن اللواء لم ينتهي من كلامه. وقال لأبي بالرغم من ورود أنباء حسنة عن استعادتي لوعيي، إلا أنه توجد مشكلة في إبصاري. عندها زادت حيرت أبي. كيف يمكن لهذا الضابط الحصول على معلومات في حين عجز هو عن ذلك؟كان خائفاً من أكون قد أصبت بالعمى. وتخيل ابنته المحبوبة، تتجول بوجه مشرق في الظلام لبقية عمرها، متسائلةً "**أبا**[١٤]، أين أنا؟" فهذه أخبار شنيعة جداً لذا لا يمكنه أخبار أمي بها، بالرغم من أنه ميئوس منه عادة في حجب الأسرار، ولا سيما عن أمي.وبدلاً من أخبارها، لجى ربه قائلاً، "هذا أمر صعب علي. سأعطيها إحدى عيناي". ثم شعر بالقلق لربما لا تعمل عينيه بشكل جيد حيث ناهز الثالثة والأربعين من العمر. وبالكاد استطاع النوم في تلك الليلة. وفي صباح اليوم التالي طلب من الرائد المسؤول عن الأمن أن يعيره هاتفه لكي يكلم العقيد جنيد. قال له أبي وهو في غاية الكرب، "لقد سمعت أن مالالا لا تستطيع الرؤية". رد عليه قائلاً، "هذا كلام فارغ. إذا كانت تكتب وتقرأ، فكيف يمكنها أن لا ترى؟ ظلت الدكتورة فيونا تبلغنا بالمستجدات أولاً بأول، وواحداً من أول ما كتبته مالالا من الملاحظات، هو السؤال عنك."

وبعيداً عنهم في برمنجهام، ليس بإمكاني أن أرى فقط، إنما طلبت إحضار مرآة لي. "مرآة"، لقد كتبت في المفكرة الوردية، "أريد أن أرى وجهي وشعري". أحضرت لي الممرضة مرآة صغيرة بيضاء وما زلت أحتفظ بها. لقد ذهلت عندما رأيت نفسي. لقد ذهب شعري الطويل الذي كنت أمضيوقتاً معتبراً في تسريحه، كما لا يوجد شعر بتاتاً في الجانب الأيسر من رأسي. كتب في المفكرة، "شعري الآن قصيراً." لقد اعتقدت أن طالبان قد حلقته. ولكن في الواقع أن

---

[١٤] أبي.

الأطباء الباكستانيين قد حلقوا شعر رأسي من دون أدنى رحمة.كان وجهي مشوهاً كأن أحداً ما جذبه لأسفل من جانب واحد، كما توجد ندبة على جانب عيني اليسرى.

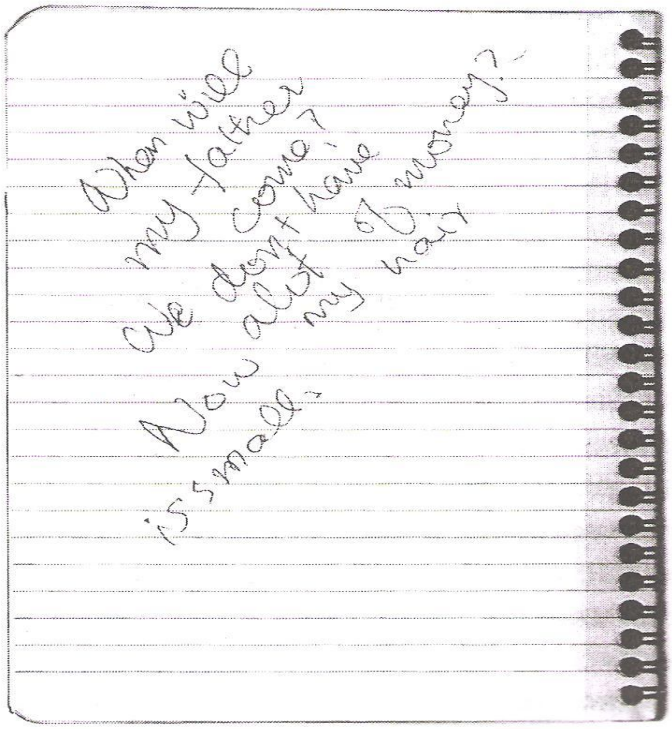

بالرغم من أن حروف كلماتي ما زالت غير مترابطة، كتبت، "كيف حصل هذا لي؟ ماذا حدث لي؟"

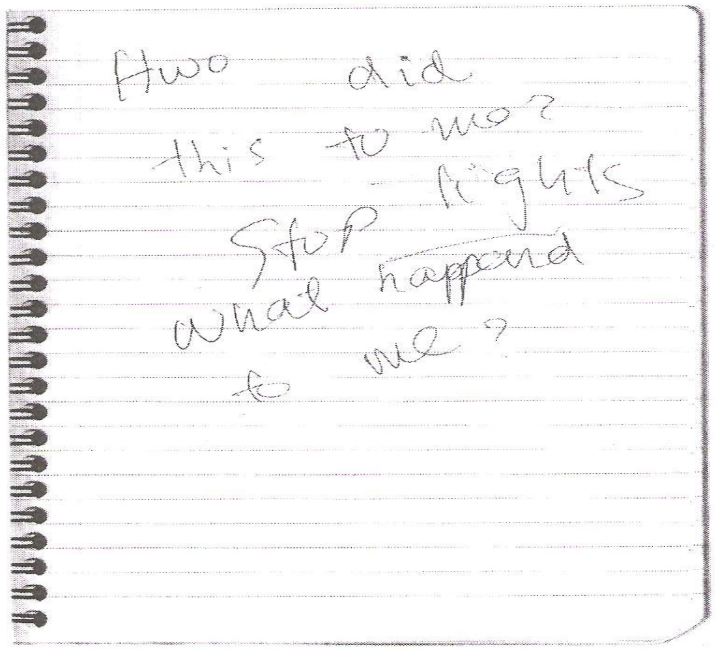

كما كتبت أيضاً، "أطفؤا الأضواء"، حيث أن الأضواء الساطعة تسبب لي الصداع.

قالت الدكتورة فيونا، "قد حدث لك شيئاً سيئاً".

كتبت، "هل أُطلقت علي النار؟ هل أطلقت النار على أبي؟"

لقد قالت لي أن النار قد أطلقت علي وأنا في حافلة المدرسة. وقالت أيضاً أن أثنين من صديقاتي اللائي كن معي في الحافلة قد أصبن، ولكنها لا تعرف أسميهِن. وأوضحت بأن الرصاصة قد دخلت من جانب عيني اليسرى مكان الندبة، وسارت للأسفل لمسافة ثمانية عشر بوصة وصولاً لكتفي الأيسر واستقرت هناك. وكان من الممكن أن تقتلع عيني أو تدخل في دماغي. وإنها لمعجزة أن لا أزال حية.

لم يروي هذا التوضيح غليلي، وربما أشعرني بقليل من الرضا فقط. "إذاً هكذا قد فعلوها". عدم سنوح الفرصة لي للتحدث إليهم قبل إطلاق النار علي، كان هو عزائي الوحيد. الآن لا يمكنهم أبداً سماع ما كنت سأقوله. لم أفكر حتى في فكرة سيئة واحدة عن الشخص الذي أطلق النار علي – وليست لدى أي نوايا للانتقام – إنما فقط أود الرجوع إلى وادي سوات. أريد العودة لمنزلي.

وبعد ذلك بدأت الصور تدور في رأسي، ولكني لم أكن متأكدة أيها كانت حقيقة وأيها كانت حلماً.إن حادثة إطلاق النار علي في حقيقتها تختلف كثيراً جداً عن القصة التي أتذكرها عنها. كنت

مستقلة حافلة مدرسة أخرى مع أبي وبعض الأصدقاء وفتاة أخرى تدعى جُول. كنا في طريق عودتنا للمنزل عندما ظهر فجأة رجلان من طالبان متشحين بالسواد. وضع أحدهما بندقية على رأسي وأن الطلقة الصغيرة التي خرجت منها دخلت في جسدي. كما أن أبي قد أطلقت عليه النار أيضاً في هذا الحلم. ثم أظلم كل شيء، وإذا بي مددت على نقالة ومحاطة بحشد من الرجال، العديد من الرجال، وعيناي تدوران تبحثان عن أبي. وأخيراً رأيته وحاولت التحدث إليه إلا إنني عجزت عن إخراج الكلمات من فمي. وفي مرات أخرى أحلم بأنني كنت في عدة أماكن وقد أطلقت النار علي؛ حيث كنت في سوق جناح[١٥] في إسلام أباد، وفي تشاينا بازار[١٦]. كما حلمت حتى أن الأطباء أنفسهم كانوا من طالبان.

وبعد أن ازدادت درجة وعييّ، أحسست بأنني في حاجة للمزيد من التفاصيل. وبالرغم من عدم السماح للأشخاص الذين يترددون علي بحمل هواتفهم النقالة، إلا أن الدكتورة فيونا لكونها طبيبة طوارئ فإنها تحمل معها هاتفها المتحرك الآيفون دائماً. لقد أمسكت به عندما وضعته بجواري على الطاولة لكي أبحث عن أسمي في غوغل. لم تكن العملية سهلة حيث أن رؤيتي المزدوجة تعني استمراري في كتابة الحروف الخطأ. كما رغبت أيضاً في التحقق من بريدي الإلكتروني إلا أنني لم أستطيع تذكر كلمة المرور.

في اليوم الخامس رجع إلي صوتي ولكنه يبدو كصوت شخص آخر. عندما دخلت علي ريحانا تجاذبنا أطراف الحديث حول إطلاق النار من منظور إسلامي. قلت لها، "أطلقوا النار علي". ردت، "نعم، هذا صحيح". وأردفت، "كثير من الناس في العالم الإسلامي لا يصدقون أن شخصاً مسلماً يمكنه أن يفعل مثل هذه الأشياء. على سبيل المثال، فأمي ستقول لا يمكن أن يكونوا مسلمين. يدّعي بعض الأشخاص أنهم مسلمين إلا أن أفعالهم تتنافى مع تعاليم الإسلام السمحة". وتحدثنا أن الأشياء تحدث لعدة أسباب مختلفة، هذا حصل لي، وكيف أن التعليم للإناث هو واحد من حقوقنا التي كفلها لنا الإسلام ولم يقتصره على الذكور فقط. وكنت قد جهرت بالحديث عن حقي كامرأة مسلمة لكي أكون قادرة على الذهاب للمدرسة.

*

[١٥] محمد جناح مؤسس باكستان وأول رئيس لها.
[١٦] السوق الصيني.

وما أن استعدتُ صوتي، تحدثت مع والدايّ بواسطة هاتف الدكتور جنيد المتحرك. كنت قلقةً من أن يبدو صوتي غريباً. لذا سألت أبي، "هل يبدو صوتي مختلفا؟"

قال، "لا، هو نفس الصوت المألوف لدى وإنما ازداد حسنا". وسألني، "هل أنت بخير؟"

أجبتُ، "نعم، لكن الصداع فظيع، ولا أكاد أطيق الألم". وأصبح أبي قلقاً حقاً. وأعتقد بأنه يعاني الآن صداعاً أفظع مما بي. ثم أصبح يسألني في كافة المحادثات اللاحقة، "ما إن كان صداعي يزداد أو ينخفض؟" ومن بعدها صرتُ أقول، "أنني بخير". لم أكن أود توتير صفوه حتى إنني لم أشتكي عندما أزالوا المسامير من رأسي وأعطوني حقناً كبيرة في رقبتي. وظللت أساله، "متى ستحضر؟" وإلى أن يحين وقت حضوره إليَّ، أصبحوا عالقين في مسكن الجيش في مستشفى في روالبندي من دون أن يكون لديهم أي علم عن متى سيذهبوا إلى برمنجهام . كانت أمي يائسةً لدرجة أنها قالت لأبي، "إذا لم تردنا أخبار بحلول الصباح فإنني سأضرب عن الطعام". وفي وقت لاحق من ذلك، ذهب أبي للرائد المسؤول عن الأمن اليوم وقال له ذلك، فبدا الانزعاج على الرائد. وبعد عشرة دقائق أبلغ أبي بأنه جرى عمل الترتيبات اللازمة لنقلهم إلى أسلام أباد في وقت لاحق من ذلك اليوم. وحتماً يمكنهم هناك ترتيب كل شيء؟

قال أبي لأمي عندما عاد إليها، "أنت امرأة عظيمة. طوال الوقت كنت اعتقد أنني ومالالا نعد من النشطاء، ولكن في الواقع أنت تعرفين حقاً كيف تحتجين".

تم نقلهما إلى السكن المخصص لأعضاء البرلمان في إسلام أباد المسمى "بيت كشمير". ولا تزال الاجراءات الأمنية في غاية الصرامة، حتى أن أبي عندما طلب حلاقاً، جلس أحد رجال الشرطة معهما طوال فترة الحلاقة حتى لا يتجرأ الحلاق ويقطع حلقوم أبي.

الآن على الأقل لديهما هواتفهما المتحركة ويمكننا التحدث بطريقة أسهل. في كل مرة، يبادر دكتور جاويد بالاتصال بأبي ليعلمه الوقت المناسب للتحدث إلي، ولكي يتأكد من أنه غير منشغل بأمور أخرى. ولكنه عندما يتصل يجد خط أبي مشغول دائماً كونه يتحدث بالهاتف على الدوام. وبدا الاندهاش على دكتور جاويد عندما نطقت له رقم هاتف أمي المتحرك المكون من إحدى عشر رقماً. عندها تيقن أن ذاكرتي بخير. إلا أن والدايّ لا يزالان يتخبطان في حيرة قاتمة عن سبب عدم التحاقهما بي، وأن دكتور جاويد محتار أيضاً لعدم مجيئهما. ثم قالا أنهما لا يعرفان السبب، وأجرى بعض الاتصالات وطمأنهما أن المشكلة ليست من قبل الجيش وإنما مع الحكومة المدنية.

سيكتشفان ذلك لاحقاً، وبدلاً من يبذل وزير الداخلية، السيد رحمان مالك، كل ما بوسعه لوضع والدايً على أول طائرة متجهة إلى برمنجهام للالتحاق بابنتهما المريضة، إلا أنه كان يأمل في السفر معهما لكي يعقدوا مؤتمراً صحفياً مشتركاً في المستشفى، وأن ترتيبات هذا الأمر يتطلب بعض الوقت. كما كان يريد التأكد من أنهما لن يطلبا حق اللجوء السياسي في بريطانيا، خوفاً من التسبب في حرج لحكومته. وفي نهاية المطاف سأل أبي بكل صراحة إن كان في نيتهما طلب اللجوء السياسي لبريطانيا.لقد كان أمراً مضحكاً حيث أن أمي ليست لديها أدني فكرة عن اللجوء السياسي وأن أبي لم يفكر فيه إطلاقاً – وأن ذهنه مشغول بأمور أخرى.

قامت السيدة سونيا شاهد، والدة صديقتنا شادية، بزيارة والدايّ عندما نقلا إلى "بيت كشمير"، وهي التي عملت الترتيبات اللازمة لنقلنا جميعاً نحن طالبات مدرسة خوشال. لقد افترضت أنهما قد ذهبا معي إلى بريطانيا، ولكنها ارتعبت عندما تبين لها فيما بعد بأنهما لا يزالان في باكستان. وقالا لها بأنهما قد أُبلغا بعدم وجود تذاكر طيران إلى برمنجهام. أحضرت لهما سونيا ملابساً حيث كانا قد تركا كل شيء في وادي سوات، وأحضرت لأبي هاتف مكتب الرئيس زارداري. أتصل أبي بمكتب الرئيس وترك له رسالة، وفي تلك الليلة تحدث الرئيس مع أبي ووعده بتسوية جميع الأمور. وقال، "أعلم بأن الأمر أشبه بحرمان شخص من أبنائه". ملمحاً بذلك إلى أيامه التي قضاها في السجن.

عندما سمعت بأنهما سيحضران إلى برمنجهام خلال يومين طلبت منهما طلب واحد. رجوت أبي قائلة، "أحضر حقيبتي المدرسية معك. ولا تشغل بالك أن لم تستطع الذهاب إلى وادي سوات وإحضارها –أشتري لي كتباً جديدة لأنني سأجلس لامتحان اللجنة في شهر مارس. وبالطبع أريد أن يكون ترتيبي الأول على فصلي. وأريد كتاب الفيزياء بالذات لكونها مادة صعبة بالنسبة لي، كما أريد أن أتدرب على الأعداد حيث أن نتائجي في الرياضيات ليس جيدة ومن الصعب علي حلها.

لقد اعتقدت بأنني سأعود إلى بلدي في شهر نوفمبر. وانتهى بي الأمر أن أمضي عشرة أيام قبل قدوم والدايّ. تلك الأيام العشرة التي أمضيتها في المستشفى من دونهما شعرت كأنها مئة يوم. كانت مملة ولم أنعم فيها بالنوم. كنت أحدق في ساعة الحائط في غرفتي. إن الوقت المتغير طمأنني بأنني لا أزال على قيد الحياة، ولأول مرة في حياتي أدركتُ أنني كنت استيقظ باكراً. في كل صباح اشتاق للساعة السابعة وقت حضور الممرضات. حيث إن الممرضات والدكتورة فيونا يلعبن معي بعض الألعاب. بما أن مستشفى الملكة إليزابيث ليس مستشفى للأطفال فقد أحضروا منسق ألعاب وألعاب وأدواتها معه. وأن لعبة توصيل الأربعة كانت واحدة من الألعاب المفضلة لدي. عادة ما

أتعادل مع الدكتورة فيونا ولكن يمكنني أن أهزم أي شخص آخر. لقد غمرنني الممرضات وكذلك طاقم المستشفى بلطفهم الأخاذ لشعورهم بالأسى لوجودي بعيدةً عن أهلي في أرض بعيدة، ولا سيما مديرة العمليات المرحة يما شودري، ورئيسة الممرضات جولي تريسي، التي دأبت على الجلوس بجواري والإمساك بيدي بحنان دفاق.

الشال ذو اللون البيج هو الشيء الوحيد الذي أمتلكه من باكستان حيث أعطاه العقيد جنيد للدكتورة فيونا هديةً لي، لذا ذهبوا لسوق الملابس لشراء ملابس لي. ولكن لم يكن لديهن أدنى فكرة عن مدى تمسكي بالعادات والتقاليد أو ما الذي يناسب فتاة مراهقة من وادي سوات. لقد ذهبن إلى محلات نكست والبيت البريطاني ورجعن محملات بأكياس ممتلئة بالفانيلات والبيجامات والجوارب وحتى حمالات الصدر. سألتني يما إن كنت أريد شالوار كميزي[١٧] فأومأت بالإيجاب. وسألتني، "ما هو اللون المفضل لديك؟" وكان ردي، "الوردي طبعاً".

فقد كانوا قلقين بأنني لم أكن آكل. ولكنني لم أكن أحب أكل المستشفى حيث كنت خائفة من أن لا يكون حلالاً. والأشياء الوحيدة التي كنت آكلها هي ميلك شيك (الأغذية المشتقة من الحليب). لقد اكتشفت الممرضة جولي أنني أحب رقائق البطاطا ماركة وتسنتس بنكهة الجبن، لذا أحضرتها لي. وسألوني، "ماذا تحبين؟" رديت، "دجاج مقلي". اكتشفت يما وجود محل لبيع "دجاج كنتاكي المقلي" الحلال يقع في "إسمول هيث"، لذا هي تذهب كل يوم بعد الظهر لتشتري لي دجاج ورقائق البطاطس. وفي أحدى الأيام أعدت لي طبخة بنكهة الكاري.

لقد أحضروا لي جهاز تشغيل أسطوانات لكي يبقوني منشغلةً. ومن أحد أوائل الأفلام التي أحضروها لي كان فيلم "أثنيها مثل بيكام"، معتقدين أن قصته التي تدور حول فتاة من السيخ تتحدى أعراف ثقافتها وتلعب كرة القدم قد تروق لي. لقد صدمت عندما رأيت الفتيات يخلعن ملابسهم ويتدربن بحمالات الصدر الرياضية وأمرت الممرضة بأن توقف عرض الفيلم. من بعدها أحضروا لي الرسوم المتحركة وأفلام ديزني. لقد شاهدت أفلام "شريك" الثلاثة كاملة وكذلك "قصة القرش". عندما أشاهد الأفلام فإنني أغطي عيني اليسرى حيث لا تزال الرؤية من خلالها ضبابية، كما أن أذني اليسرى تنزف فإنني مضطرة للاستمرار بوضع الكرات المصنوعة من الصوف والقطن فيها. في إحدى الأيام سألتُ ممرضة ووضعتُ يدها على بطني، "ما هذا النتوء؟ بطني كبيرة وصلبة، ولا أدري السبب". ردت علي قائلة، "أنه الجزء العلوي من جمجمتك". فصعقت للأمر.

---

[١٧] الزي التقليدي للرجال والنساء السائد في المنطقة (   )

بعدها بدأت أتكلم كما أنني بدأت أمشي أيضاً لأول مرة. عندما كنت طريحةُ السرير لم أشعر بأي مشكلة في ذراعي وساقي ما عدا يدي اليسرى التي كانت صلبة لأن الرصاصة استقرت بجوار كتفي، لذلك لم أكن أدرك بأنه لا يمكنني المشي بالشكل الصحيح. كانت خطواتي الأولى القلائل عملاً شاقاً وبدا الأمر كأنني ركضت مئات الكيلومترات. قال الأطباء بأنني سأكون بخير، إنني فقط في حاجة إلى الكثير من العلاج الطبيعي لكي تعود عضلاتي للعمل من جديد.

في أحد الأيام حضرت فيونا أخرى، فيونا الأسكندر، التي قالت لي إنها كانت مسئولة عن المكتب الصحفي للمستشفى. اعتقدت أن الأمر مدعاة للضحك. لم أكن أتصور أن مستشفى وادي سوات لديه مكتب صحفي. ولم يكن لدى أدنى فكرة عن الاهتمام الذي استقطبته حتى جاءت. كان من المفترض أن يكون هناك تعتيم إعلامي عندما كنت على متن الطائرةً المتحركة من باكستان، ولكن سُربت صور مغادرتي من باكستان وقيل أنني متجهة إلى المملكة المتحدة، وسرعان ما عرفت وسائل الإعلام أن برمنجهام وجهتي. كما أن مروحية قناة سكاي نيوز سرعان ما كانت تحوم فوقنا، وجاء ما يصل إلى مائتين وخمسين صحفياً من أماكن بعيدة مثل اليابان وأستراليا. لقد أمضت فيونا الأسكندر عشرين عاماً من عمرها تعمل صحفية، وكانت رئيسة تحرير صحيفة برمنجهام بوست، لذا فإنها تعلم بالضبط كيف تزود الصحفيين بالمعلومات وتمنعهم من محاولة الدخول إلي. كما أن المستشفى شرع في إعطاء أخبار مقتضبة عن حالتي بشكل يومي.

دأب الناس على الظهور فجأة وأبدوا الرغبة في رؤيتي، منهم من كانوا وزراء حكومة ودبلوماسيين وسياسيين وحتى مبعوث من رئيس أساقفة كانتربري. أحضر معظمهم باقات ورد، وكان جمال بعضها في غاية الروعة. في إحدى الأيام أحضرت لي فيونا الأسكندر حقيبة مملؤة ببطاقات التهاني والدمى والصور. بما أن اليوم يصادف عيد الأضحى، "العيد الكبير"، العطلة الرئيسية في ديننا، لذا اعتقدت أن بعض المسلمين أرسلوا لي هذه الأشياء. ثم رأيت التاريخ المكتوب على ختم البريد، فإنه يرجع لعدة أيام خلت، يومي العاشر والحادي عشر من أكتوبر، عندها أدركت أن لا علاقة لها بالعيد. لقد أرسلت لي تلك البطاقات من ناس من كافة أصقاع المعمورة يتمنون لي الشفاء العاجل، وكثير منهم أطفال مدارس. كنت مندهشةً بينما غرقت فيونا في الضحك. "لم تشاهدين أي شيء حتى الآن"، لقد قالت لي هناك رزم ورزم أكثر، وبلغ مجموع البطاقات حوالي ثمانية آلاف، والعديد منها مكتوب عليه فقط، "مالالا، مستشفى برمنجهام". حتى أن واحداً منها معنون، "الفتاة التي أطلقت عليها النار في الرأس، برمنجهام"، وبالرغم من ذلك وصلت إلي. وكانت هناك عروض بالتبني كما لو لم يكن لدي أي أسرة، وحتى عروض اقتراح بالزواج.

أخبرتني ريحانا أن الآلاف والملايين من الناس وحتى الأطفال من كافة أرجاء العالم قد ساندوني وأقاموا الصلوات من أجلي. عندها أدركت أن الناس قد أنقذوا حياتي. وأن النجاة قد كُتبت لي لسبب. أرسل الناس هدايا أخرى أيضاً. كان هناك صناديق وصناديق من الشوكولا ودميات الدببة من كافة الأشكال والأحجام. بالطبع فإن أثمنها على الإطلاق كان الطرد الذي وصل من بلوال وبختاوار طفلي بنازير بوتو. حيث كان بداخلِه شالا والدتهما المرحومة. لقد طمرتُ أنفي فيهما في محاولة لشم عطرها. ولاحقاً وجدت خصلة شعر طويلة سوداء في احدهما، مما جعله أكثر تميزاً.

الآن أدركتُ ما فعلته طالبان، فقد منحت الصفة العالمية لحملتي. بينما كنت مستلقية في ذلك السرير منتظرة أن أخطو خطواتي الأولى في العالم الجديد، طرح مبعوث الأمم المتحدة للتعليم رئيس وزراء بريطانيا، السيد غوردون براون، عريضة تحت شعار "أنا مالالا" للمطالبة بأن لا يحرم أي طفل من التعليم بحلول عام ٢٠١٥. كانت هناك رسائل من رؤساء الدول والوزراء ونجوم السينما وواحدة من حفيدة السير كاروي أولاف آخر حاكم بريطاني لمقاطعتنا. قالت فيها إنها تشعر بالخجل لعدم تمكنها من القراءة والكتابة بالبشتو بالرغم من أن جدها كان يفعل ذلك بطلاقة. كتبت لي بيونسيه (المغنية المشهورة) بطاقة تهنئة ونشرت صورة منها على الفيسبوك، وكتبت سيلينا غوميز تغريدة عني واهدتني مادونا أغنية. وحتى أنجلينا جولي ممثلتي المفضلة والناشطة الاجتماعية أرسلت لي رسالة –وأتحرق شوقاً لأخبر مونيبا. لم أكن أعلم آنذاك بأنني لن أذهب إلى البلد.

- القسم ٢٤ –

"لقد اختطفوا ابتسامتها"

أخرجت من غرفة العناية المركزة ونقلت إلى الغرفة رقم ٤ بالعنبر رقم ٥١٩ في نفس اليوم الذي ركب والدايً الطائرة في طريقهما إلى برمنجهام. من هنا يمكنني النظر للخارج من خلال النوافذ ورؤية بريطانيا لأول مرة. سألتُ نفسي، "أين الجبال يا ترى؟" كانت الأجواء ممطرة والضباب منتشراً لذا ظننت أنها قد تكون مختفية خلف الضباب. لم أكن أعرف حتى ذلك الحين إنني في أرض لا تشرق الشمس فيها إلا قليلاً . المنازل والطرقات هي كل ما يمكنني أن أراه. المنازل مبنية من الطوب الأحمر وتبدو جميعها متطابقة الشكل. كل شيء بدا هادئاً ومنظماً، وكان من المستغرب أن ترى حياة الناس مستمرة كأن شيء لم يحدث.

قالي لي دكتور جاويد أن والدايّ قادمين وأمال سريري لكي أكون جالسة وأقوم باستقبالهما عندما يصلان. لقد كنت في غاية الانفعال. حيث أنه منذ ذلك الصباح قبل ستة عشر يوماً عندما ركضت من منزلنا من منقورا قائلة مع السلامة، لقد دخلتُ أربعة مستشفيات وقطعت آلاف الأميال. لقد بدت هذه المدة كأنها ستة عشر سنّة. ثم فتح الباب وكانت هناك أصوات مألوفة تقول،"جاني[١٨] و 'بيشو[١٩]"، وبالفعل كانوا هناك، فشرعوا في تقبيل يديّ كما لو كانوا خائفين من لمسي.

لم أتمالك نفسي وبكيت بصوت عالي بكل ما استطيع. لم يحصل أن بكيت طوال فترة وجودي وحيدة في المستشفى حتى عندما أعطوني كل تلك الحقن في رقبتي أو عندما أزالوا المسامير من رأسي. ولكني لا أستطيع التوقف عن البكاء الآن. وبكى والدايً أيضاً. وكان الأمر كما لو أن كل الأسى قد أُزيل من قلبي. وشعرت بأن كل شيء سيكون على ما يرام. كما كنت مسرورة أيضاً برؤية أخي خوشال، حيث كنت في حاجة لشخص أتشاجر معه. قال أخواي، "لقد افتقدناك جميعاً يا مالالا"، مع ذلك اعتقدت بأنهما سيهتمان بعد قليل بالدمى والهدايا أكثر من كل

[١٨] عزيزتي.
[١٩] بُرتي (قطتي).

شيء. وأنني وخوشال قريباً سنتشاجر مرة أخرى عندما يأخذ حاسوبي المحمول ليتسلى بالألعاب التي فيه.

لقد صدمت بمظهر والدايً. كانا مرهقين من الرحلة الطويلة من باكستان ولكن لم يكن ذلك كل شيء – لقد بديا متقدمين في السن ويمكن أن أرى أن الشيب قد وخط رأسيهما، لقد حاولا إخفائه، ولكن انزعاجهما من مظهري بدا واضحاً لعيناي. لقد حذرهما دكتور جاويد قبل أن يدخلا علي قائلاً لهما، "إن الفتاة التي تريانها لم تستعد من عافيتها سوى ١٠% ولا يزال عليها استعادة الـ ٩٠% المتبقية لكي تعود لسابق عهدها". ولكن لم تكن لديهما أدنى فكرة أن نصف وجهي لا يعمل لذلك لا يمكنني أن أبتسم. وأن عيني اليسرى منتفخة ونصف شعري قد ذهب ومال فمي لجانب واحد كما لو أنه قد جذب إلى تحت، لذلك عندما أحاول أن أبتسم يبدو وجهي أكثر شبهاً بالتكشير منه للابتسام. ويبدو كأن دماغي قد نسى أن له وجه في الجهة اليسرى. كما أنني لا أسمع أيضاً إلا من جانب واحد، وأتكلم بطريقة أشبه بلغة الأطفال كما لو أنني طفل صغير.

لقد وُضع والديّ في سكنٍ بالجامعة وسط جميع الطلبة. حيث رأى المسؤولون في المستشفى ربما لن يرتاحا فيها حيث سيحاصرهما الصحفيون من كل جانب، كما أرادوا حمايتنا في هذه المرحلة الحرجة من رحلة معافاتي. لم يكن مع والديّ سوى القليل جداً من المال عدا الملابس التي يرتديانها والأخرى التي أحضرتها لهم سونيا والدة شادية، حيث لم يخطر ببالهما أنهما لن يعودا مرة أخرى للبيت عندما غادرا وادي سوات في التاسع من أكتوبر. وبكيا كالأطفال عند عودتهما لغرفة السكن. لقد كنت دائماً طفلة سعيدة. كان أبي يتباهى أمام الناس، "بابتسامتي السماوية وضحكتي الملائكية". أما الآن فقد أعرب عن أسفه لأمي قائلاً، "لقد ذهبت نضارة وجمال ذلك الوجه، وكذلك إشراقته ولمعانه قد ذهبا؛ لقد فقدت ابتسامتها وضحكتها. وأضاف، "إن حركة طالبان قاسية جداً – لقد اختطفوا ابتسامتها، يمكن للمرء أن يهب الناس عينين ورئتين ولكنه لا يستطيع أن يستعيد ابتسامتهم".

تكمن المشكلة في العصب الوجهي. في تلك المرحلة لم يكن الأطباء متأكدين إن كان مقطوعاً، أم أنه متضرر وسيتعالج من تلقاء نفسه. أما بالنسبة لي، كنت أحرص دائماً على الاعتناء بمظهري، وكيف يبدو شعري! ولكن عندما يرى المرء الموت، فإن الأمور تتغير في نظره. قلت لها، "لا يهم أن كنت لا أستطيع الابتسام أم أرمش بعيني بطريقة طبيعية، أنا ما زلت أنا، مالالا. وأن أهم شيء بالنسبة لي هو أن الله قد وهبني حياتي". وفي كل مرة يأتيان فيها للمستشفى وأحاول أن أبتسم أو أضحك، تغطي وجه أمي سحابة من الكآبة كأن غيمة سوداء قد أظلته. وأصبح الأمر

كالمرآة العاكسة؛ عندما ترتسم على محياي ملامح ضحكة ترتسم على وجه أمي سمات الضيق والكآبة.

ومن جانب آخر؛ فإن أبي ينظر ناحية أمي، التي ارتسم على محياها سؤال كبير فحواه لماذا تبدو مالالا بمثل هذا المنظر؟ الفتاة التي أنجبتها للوجود قد كانت مبتسمة طوال خمسة عشر عاماً. في إحدى الأيام سألها أبي، "بيكاي[٢٠]، قول لي بكل صراحة، هل تعتقدين أنه خطأي؟" ردت عليه قائلةً، "كلا، يا خايستا، إنك لم ترسلها للسرقة أو القتل أو لارتكاب الجرائم، إنما حدث هذا لأمر نبيل".

حتى لو كان الأمر كذلك، إلا أن أبي كان خائفاً من المستقبل، كلما ابتسمت يذكرني ذلك بإطلاق النار عليّ. لم تكن تلك هي الطريقة الوحيدة التي اكتشفا فيها التغيرات التي حدثت لي. في الماضي عندما كنت في وادي سوات، دأبت على أن أكون طفلة رقيقة وحساسة جداً أبكي لأتفه الأسباب، أما الآن في المستشفى في برمنجهام، فلم أتذمر رغم معاناتي من آلام مبرحة لا تطاق.

رفضت إدارة المستشفى السماح لزوار آخرين بزيارتي رغم إغراقهم لها بالطلبات، وذلك بسبب رغبة الإدارة أن أتمكن من التركيز على برامج إعادة التأهيل على إنفراد وبخصوصية تامة. وبعد أربعة أيام من حضور والديّ، حضرت مجموعة من السياسيين إلى المستشفى من الدول الثلاثة التي ساعدتني وهم؛ وزير الداخلية الباكستاني السيد رحمان مالك، ووزير الخارجية البريطاني السيد وليم هيج، والشيخ عبدالله بن زايد وزير خارجية دولة الإمارات العربية المتحدة. لم يسمح لهم بزيارتي وإنما قابلوا أبي، كما أن الأطباء قاموا بتنويرهم عن حالتي. لقد استاء أبي من زيارة الوزراء، فقد قال له رحمان مالك، "قل لمالالا يجب عليها أن تمنح الابتسامة للأمة". لم يكن يدري أن الابتسامة هي الشيء الوحيد الذي لا يمكنني فعله.

كان رحمان مالك قد أفصح أن مهاجمي كان أحد رجال طالبان يدعى عطاء الله خان وقال أنه قد أعتقل في عملية في وادي سوات في سنة ٢٠٠٩ وأخلى سبيله بعد ثلاثة أشهر. كانت هناك تقارير إعلامية تفيد بأنه حاصل على درجة في الفيزياء من كلية جهيان زيب. وأدعى مالك أن خطة إطلاق النار علي قد حيكت في أفغانستان وأنه تم رصد مكافأة مقدارها مليون دولار لرأس عطاء الله ووعد بأنهم سيعثروا عليه. ولكنا نشك في ذلك، حيث لم يتم القبض أبداً على أي مطلوب؛ لم يقبض على قاتل بنازير بوتو، ولا أي ممن دبروا تحطم الطائرة التي قتلت ضياء الحق[٢١]، ولا قاتل ليقات على خان أول رئيس وزراء لباكستان.

---

[٢٠] اسم الدلال لوالدة مالالا.

[٢١] رئيس وزراء باكستاني سابق تم اغتياله.

لم يتم توقيف سوى شخصين بعد إطلاق النار علي، عثمان باي جان سائقنا المسكين والثاني محاسب المدرسة، الذي استلم محادثة عثمان باي جان الهاتفية التي يوضح له فيها الحادثة التي وقعت. وأطلقَ سراحه بعد عدة أيام إلا أن عثمان باي جان لا يزال قيد الحبس العسكري بحجة حاجتهم إليه للتعرف على الناس.نحن منزعجون جداً لهذا الأمر. لماذا اعتقلوا عثمان باي جان ولم يعتقلوا عطاء الله.

أعلنت الأمم المتحدة بأنهم قد خصصوا يوم العاشر من نوفمبر ليكون "يوم مالالا"، والذي يصادف مرور شهر ويوم واحد على حادثة إطلاق النار علي. لم أعير الأمر كبير اهتمام حيث كنت منشغلة بالاستعداد لعملية كبرى لترميم العصب الوجهي ستجرى لي في اليوم التالي. لقد أجرى الأطباء اختبارات بالنبضات الكهربائية للعصب الوجهي إلا أنه لم يستجيب، لذا فقد استنتجوا بأنه مقطوع وعليهم أجراء عملية عاجلة لترميمه وإلا ظل وجهي مشلولاً. لقد دأبت المستشفى على تزويد الصحفيين بصورة منتظمة عن تقدمي في العلاج إلا إنها لم تخبرهم بهذه العملية لكي تُجرى بكل سرية.

في الحادي عشر من نوفمبر أخذت إلى غرفة العمليات إلى لإجراء العملية على يد جراح يدعى ريتشارد ايرفنج. لقد أوضح لي أن هذا العصب هو المسيطر على جانب وجهي، وكانت وظيفته فتح وغلق عيني اليسرى وتحريك أنفي ورفع حاجبي الأيسر ويمكنني من الابتسام. إن إصلاح العصب عمل دقيق ويستغرق ثمانية ساعات ونصف. في البدء نظف الجراح قناة أذني من أنسجة الندبة وشظايا العظام وأكتشف أن طبلة أذني اليسرى قد تضررت. ثم تتبع العصب الوجهي من العظم الصدغي من بداية مدخله للجمجمة إلى خروجه منها، وخلال تتبعه أزال الكثير من شظايا العظام التي كانت تقيد حركة فكي. وجد الجراح سنتمترين من عصبي الوجهي مفقودة تماماً في مكان خروجه من الجمجمة، وأنه سيعيد توجيهه من أمام أذني من قناته الطبيعية خلف الأذن، لإغلاق فجوة السنتمترين المفقودين.

لقد تمت العملية بشكل جيد، وبالرغم من ذلك كان علي الإنتظار لمدة ثلاثة أشهر حتى يبدأ الجانب الأيسر من وجهي العمل جزءاً فجزءاً. واضطررت للقيام بتمارين للوجه بشكل يومي أمام مرآتي الصغيرة. قال لي السيد ايرفينج أن العصب سيبدأ العمل بعد ستة أشهر ومع ذلك فلن أكون أبداً كما كنت تماماً. وإنه لمن دواعي سروري سأتمكن قريباً من الابتسام والغمز بعيني، وأسبوع بعد أسبوع شهد والديّ مزيداً من الحركة في وجهي. بالرغم من أنه وجهي، إلا أنني أرى أن والديّ هما الأسعد بأن عادت ملامح وجهي. بعد ذلك قال السيد ايرفينج أنها أفضل نتيجة شاهدها

خلال عشرين سنة من عمليات جراحة العصب الوجهي، وأنه شفى بنسبة ٨٦%. والنتيجة الجيدة الأخرى هي أن الصداع قد ذهب أخيراً وبدأت القراءة مرة أخرى. وبدأت بكتاب "سالي في بلاد العجائب"، واحد من كومة الكتب التي أرسلها لي غوردون براون. أنا أحب القراءة عن دورثي وكيف أنها كانت تحاول العودة للبيت إلا أنها توقفت وساعدت المحتاجين مثل الأسد الجبان والرجل القصير الرث الثياب. وكان عليها عبور الكثير من العقبات حتى تصل إلى المكان الذي تقصده، واعتقدت إذا أردت أن تحقق هدفك، حتماً ستكون هناك عقبات في طريقك ولكن يجب أن تستمر. لقد كنت متفاعلة جداً مع الكتاب لدرجة أنني قرأته بسرعة وبعد ذلك أخبرت أبي كل شيء عنه. سعد أبي كثيراً جداً لأنه تيقن إن كنت استطيع حفظ ورواية مثل هذا التفاصيل فيجب أن تكون ذاكرتي على ما يرام.

كنت أعلم أن والديّ قلقين بشأن ذاكرتي كوني قلت لهم أنني لا أعلم أي شيء حول حادثة إطلاق النار وبدأت أنسى أسماء صديقاتي. لم يكونا حادي الذهن للغاية. إلا أنه في إحدى الأيام قال أبي، "مالالا، هل يمكنك أن تغني لنا بعض **تابا**[٢٢] البشتو؟" غنيت المقطع الذي نحبه؛

"عندما تبدأ رحلتك من نهاية ذيل الثعبان ....حتماً ستنتهي بك في رأسه وسط بحر من السموم".

بالنسبة لنا يشير هذا إلى كيف بادرت السلطات الباكستانية بإستخدام المليشيات وأنتهى بها المطاف الآن في فوضى من صنع أياديها. ثم قلت، "في الواقع هناك تابا أود أن أعيد صياغتها".

بدا أبي مفتوناً. **التابا** هو إرث الحِكم التي جُمعت في مجتمعنا منذ قرون، ليس عليكي تغيرها. وسأل، "أي واحد منها؟"

قلت، هذا،

"إن عجز الرجال عن كسب المعركة يا وطني

عندها ستتقدم النساء ويحرزن لك المجد يا وطني"

أريد تغيرها إلى:

"سواءاً كسب الرجال أو خسروا المعركة يا وطني

إن النساء قادمات وسيحرزن لك المجد يا وطني"

ضحك أبي، وكرر القصة للجميع كما أعتاد دائماً.

[٢٢] ضرب من ضروب الشعر الشعبي الباشتوني يتكون من شطر وعجز للبيت.

من ناحية أخرى لقد تمرنت بجدٍ مع أخصائي العلاج الطبيعي في صالة الألعاب الرياضية لكي تتمكن ساقاي ورجلاي من العمل بشكل طبيعي مرة أخرى. وفي السادس من ديسمبر كوفئتُ بأول رحلة خارج المستشفى. لقد أعربتُ لياما عن حبي للطبيعة لذا قامت بإجراء الترتيبات اللازمة لأثنين من طاقم المستشفى لأخذي في نزهة مع أمي إلى حدائق برمنجهام النباتية التي لا تبعد كثيراً عن المستشفى. لأعتقادهم بأن أبي ربما يكون معروفاً نسبة لظهوره على وسائل الإعلام كثيراً، فلم يسمحوا له بالذهاب معنا. مع ذلك كنت مسرورة جداً كونها المرة الأولى التي أعود فيها إلى العالم الخارجي، ورؤية برمنجهام وإنجلترا.

قالوا لي أن أجلس في وسط المقعد الخلفي للسيارة وليس قريباً من النافذه، لقد ضايقني هذا الأمر بعض الشيء حيث كنت أتطلعُ أن أشاهد كل شيء في هذا البلد الجديد. ولم يدر بخلدي أنهم كانوا يحاولوا حماية رأسي من الأرتطام. وعندما ولجنا إلى الحدائق ورأيت الأشجار والنباتات الخضراء، كان المنظر بمثابة تذكير قوي من البلد. وظللت أقول، "هذا موجود في واديّنا، وهذا لدينا أيضاً"، وأنا فخورة جداً بالنباتات الجميلة في واديًنا.بالنسبة لي كان أمراً غريباً رؤية جميع الزوار الآخرين، بينما كان مجرد يوماً عادياً بالنسبة لهم. وإنتابني شعور مماثل لما شعرت به دورثتي في نهاية رحلتها. كانت أمي مبتهجةً جداً مما حدا بها الإتصال بأبي. وقالت، "لأول مرة أحس بالسرور". ولكن الجو كان بارداً كالجليد لذا دخلنا إلى المقهى وتناولنا شاياًوكيكاً لذيذين، شيءً يسمى "شاي بالكريمة".

بعد يومين من زيارتنا للحدائق، زارني أشرف زارداري الرئيس الباكستاني وكانت تلك أول زيارة حظيت بها من خارج العائلة. لم تكن إدارة المستشفى ترغب في حضوره حيث أنها تعرف أن ذلك سيصيب وسائل الإعلام بنوبة شغف لمقابلته، إلا أنه كان من الصعب على أبي رفض حضوره. لم يكن زارداري رئيس دولتنا يمثل شخصه فقط ولكنه قال أن الحكومة ستتكفل بدفع جميع نفقات علاجي، والتي من شأنها أن تبلغ بنهاية الأمر مئتي ألف جنيه إسترليني. كما أنهم استأجروا أيضاً لوالدايّ شقة في وسط برمنجهام وبالتالي يمكنهما ترك الفندق. كانت الزيارة في يوم السبت الموافق للثامن من شهر ديسمبر، وبدت كل الأحداث كأنها إحدى أحداث أفلام جيمس بوند.

أحتشدت جموع غفيرة من الصحفين في الخارج من وقت مبكر، وبشكل طبيعي أفترضوا أن الرئيس سيُحضر إلي غرفتي في المستشفى. ولكن حصل العكس حيث لففت في **بركا**[٢٣] كبيرة أرجوانية اللون، وأنزلنا عبر مدخل الموظفين ومررنا بجوار الصحفيين والمصورين، وكان بعضهم

[٢٣] سترة من الفراء مزودة بغطاء للرأس.

قد تسلقوا الأشجار، ولكنهم لم يتمكنوا حتى من ملاحظتنا. ثم جلست وأنتظرت في مكتب، وبدأت ألعب لعبة تسمى قزم البولينغ على الحاسوب وأهزم أخي أتال بالرغم من أنها المرة الأولى التي ألعب فيها هذه اللعبة. وعندما حضر زارداري وجماعته أدخلوا من الخلف، وقد حضر معه حوالي عشرة أشخاص في سيارتين، بما فيهم رئيس أركانه ووزير دفاعه والمفوض السامي الباكستاني في لندن، الذي تولي الوصاية علي في المملكة المتحدة بشكل رسمي بدلاً من الدكتورة فيونا حتى وصول أبي.

في البدء أرشد الأطباء الرئيس إلى عدم الإشارة لوجهي في مجريات حديثه. ثم دخل لرؤيتي مصطحباً معه إبنته الصغرى آصيفه، التي تكبرني ببضع سنوات. وأحضروا لي باقة من الزهور. لمس الرئيس رأسي، كما هو متبع لدينا، إلا أن أبي شعر بالقلق حيث لا يوجد برأسي سوى الجلد، لا يوجد عظم ليحمي دماغي، كما أن رأسي تحت الشال كان مقعراً. وبعد ذلك جلس الرئيس مع أبي، الذي قال له بأننا كنا محظوظين بأن تم إحضاري إلى المملكة المتحدة. قال، "ربما يمكنها أن تنجو في باكستان ولكن لا يمكن إعادة تأهيلها وربما تكون مشوهة. والآن ستعود إبتسامتها".

أمر السيد زارداري المفوض السامي أن يعين أبي ملحقاً للتعليم حتى يكون لديه راتب يقتات منه وأن يمنحه جواز سفر دبلماسي وبذلك لن يحتاج إلى طلب اللجوء السياسي للبقاء في المملكة المتحدة. شعر أبي بالإرتياح لأنه كان محتاراً في الطريقة التي يدفع بها ثمن احتياجاتهم الأساسية. كما أن جولدن براون، بحسب منصبه في الأمم المتحدة، طلب من أبي أن يكون مستشاراً له، وهي وظيفة شرفية بدون راتب، أبدى الرئيس موافقته وقال يمكنه أن يشغل المنصبين. وبعد اللقاء وصفني السيد زارداري لوسائل الإعلام بأنني "فتاة مميزة ومفخرة لباكستان". ولكن رغم أن هذا هو رأي الرئيس إلا أن كل الباكتسانين ليسوا بهذه الإيجابية. وبالرغم من ذلك حاول أبي منعه عني، وإنني أعلم أن بعض الناس يقولوا أنه أطلق النار عليّ، أو أنها لم تطلق عليّ على الإطلاق، وأننا قد رتبنا كل تلك المسرحية لكي نتكمن من العيش في الخارج.

كان العام الجديد ٢٠١٣عاماً سعيداً بالنسبة لي حيث أُخرجت من المستشفى في أوائل يناير وأصبحتُ أعيش مع عائلتي من جديد. أستأجرت لنا المفوضية العليا الباكستانية شقتين في الساحة الحديثة في وسط برمنجهام. تقع الشقتان في الطابق العاشر، وهو مكان أعلى من أي مكان آخر صعد إليه أي منا من قبل. ولقد مازحت أمي التي قالت عندما وقع الزلزال وكنا نسكن في مبنى

مكون من ثلاثة طوابق، "إنها لن تسكن أبداً في بناية سكنية مرة أخرى". وعندما وصلوا قال لي أبي أنها كانت خائفة جداً لدرجة إنها قالت له، "إنها ستموت في هذا المصعد!".

لقد كنا سعداء جداً كوننا أجتمعنا كعائلة مرة أخرى. كان أخي خوشال متزعجاً كعادته، ورغم أن أتال كانمبتهجاً بكل شيء جديد حوله، إلا أنهما قد سئما البقاء بعيداً عن المدرسة وعن أصدقائهما وانتظار شفائي. وسرعان ما أدركت إنه يمكنني التعامل معهما بالطريقة التي أحبها ولا أود تأنيبهما.كان شتاءاً بارداً، وحين شاهدت الثلج يتساقط في الخارج من خلال النافذة الزجاجية الضخمة، وددتُ أن أركض في الخارج وأطارد جزيئات الثلج المتساقطة مثلما كنا نفعل في الوطن. وبالرغم من انني أتعب بسرعة إلا أننا قد ذهبنا للتمشى في بعض الأحيان لكي أبني قوتي.

تطل شقتنا على برود رود، الشارع الشهير بالمحلات التجارية والنوادي الليلية ونوادي التعري. وبالتالي يمكننا أن نرى النافورة الموجودة في الساحة وكذلك مقهى كوستا ذو الجدران الزجاجية التي تستطيع من خلالها رؤية الرجال والنساء يتجاذبون أطراف الحديث ويختلطون بطريقة لا يمكن حتى تخيلها في وادي سوات. وبالرغم من أنني لا أزال لا أحب التسوق إلا أننا ذهبنا إلى المحلات التجارية. أما في الليل فكانت أعيوننا جميعها مسمرة على سيقان تلك المرأة التي ترتدي تلك الملابس الضيقة؛ سروال قصير مثل اللباس الداخلي الحريمي تقريباً وساقين عاريتين لأعلى الكعب رغم أننا في منتصف فصل الشتاء. ولهول المظهر بالنسبة لها أرتعبت أمي لدرجة إنها صرخت، "غارقا شوما![٢٤]"، وترجت أبي، "أرجوك خذني إلى دبي. لا يمكنني العيش هنا!" ولاحقاً ضحكنا حول هذا الموضوع. وسألت أمي قائلةً، "هل سيقانهن مصنوعات من حديد لذلك لا يشعرن بالبرد؟".

تم تحذيرنا بعدم البقاء لوقت متأخر في الخارج في برود رود في ليالي نهاية الأسبوع حيث من الممكن أن يصبح الوضع خطيراً. جعلنا هذا الأمر نضحك، كيف يكون الوضع هنا غير آمن مقارنةً بالمكان الذي جئنا منه؟ أكانت هناك طالبان تقطع رؤوس الناس؟ لم أخبر أبي ولكني كنت أنزوي كلما أقترب مني رجل تبدو عليه الملامح الآسوية. أعتقدت أن الجميع مسلح.

درجت على التحدث مع أصدقائي في منقورا بواسطة الإسكاي بي مرة في الأسبوع، وأخبروني بأنهم لا يزالوا يحتفظون بمقعد لي في الفصل. كما أن المعلمة قد أحضرت إلى الفصل نتيجة إمتحان الدراسات الباكستانية منذ ذلك اليوم، يوم إطلاق النار. لقد نلت فيه العلامة الكاملة – ٧٥/٧٥، إلا أن ماليكا بنت النور أحرزت المركز الأول على الفصل، لكوني لم أجلس لإمتحن بقية

[٢٤] أنا أغرق.

المواد. بالرغم من أنني حظيت ببعض الدروس في المستشفى، إلا أنه إنتابتني مسحة من القلق بسب تخلفي عن زملائي. وأصبحت المنافسة الآن بين ماليكا بنت النور ومونيبا. أخبرتي ماليكا بنت النور، "أن المنافسة مملّة بدوني".

أصبح عودي يقوى بشكل يومي، إلا أن جراحتي لم تكتمل بعد. لم يزل الجزء العلوي من جمجتي مفقوداً. كما أن الأطباء كانوا قلقين أيضاً بشأن سمعي، ويتضح ذلك في عدم استطاعتي فهم كلمات أبي وأمي وسط الحشود أثناء تنزهنا. كما كنت أسمع داخل أذني ضجيجاً يماثل صوت المعدن وبالكاد أسمع فقط. في يوم السبت الموافق للثاني من فبراير رجعت لمستشفى الملكة اليزابيث لكي تجرى لي إحدى النساء عملية. كان أسمها آنوين وايت. بدأت بإزالة الجمجمة من بطني، ولكنها بعد أن نظرت إليها قررت عدم وضعها في مكانها حيث أنها لم تحفظ بطريقة جيدة وتوجد مخاطرة في أصابتي بالعدوى. بدلاً من ذلك فعلت شيءاً يسمى رأب القحف بالتيتانيوم (إنني أعرف الآن الكثير من المصطلحات الطبية) وركبت لوحة التيتانيوم المصنوعة خصيصاً في رأسي وثبتتها بثمانية مسامير لتقوم بوظيفة الجمجمة وتحمي دماغي.

وبينما كنت أجري العملية، أتى السيد إيرفن، الجراح الذي أصلح عصبي الوجهي، بحل أيضاً لمشكلة طبلة أذني اليسرى المتضررة. وضع داخل رأسي جهازاً إلكترونياً صغيراً يسمى "زراعة القوقعة" بجوار الأذن وأخبرني بأنهم سيضعون الجزء الخارجي على رأسي في غضون شهر من الآن، وبعد ذلك سأتمكن من السمع. مكثت خمس ساعات في غرفة العمليات وأجريت لي ثلاث عمليات، ولكني لم أشعر بأنني قد خضعت لعملية جراحية كبرى، ورجعت إلى الشقة خلال خمسة أيام. وبعد عدة أسابيع وبعد أن رُكب جهاز الأستقبال خلف أذني ولأول مرة سمعت أذني اليسرى صوت بيب بيب. في البدء كان كل شيء مثل صوت الروبوت، ولكن سرعان ما تحسن الصوت وأصبح أفضل وأفضل.

نحن البشر لا ندرك عظمة الخالق. لقد حبانا بعقل خارق وقلب محب مرهف الاحساس. ومنحنا شفتين للتحدث والتعبير عن المشاعر، وعينان تريان عوالم الجمال والألوان، وقدمان تمشيان في دروب الحياة، ويدان تعملان طبع أمرنا، وأنف تشتم روعة العطور، وأذنان لسماع عبارات الحب. كما أكتشفت مع أذني، أن الناس لا يدركون مقدار القوة التي لدى كل منهم وفي كل عضو فيه حتى يفقدوا أحدها.

شكرت الله كثيراً لأنه حباني بهؤلاء الأطباء المثابرين، ولشفائي ولإرسالنا لهذا العالم حيث كنا سنكافح للمحافظة على حياتنا. بعض الناس اختار اساليب جيدة للحياة بينما اختار البعض الآخر

العكس. لقد اصابتني رصاصة أحدهم. في غضون ثانية؛ ضخمت دماغي، سرقت سمعي، وقطعت عصب الجانب الأيسر من وجهي. وبعد تلك الثانية الواحدة، كان هناك الملايين من الناس يصلون من أجل حياتي وأطباء موهوبون هم من قدموا لي جسدي مرة أخرى. كنت فتاة طيبة، لا يوجد في صميم قلبي سوى الرغبة في مساعدة الناس. لم يكن ذلك من أجل المال ولا التكريم. كنت أسأل الله دائماً، "أريد مساعدة الناس وأرجوك ساعدني للقيام بذلك".

أطلق الطالب[٢٥] ثلاث رصاصات من مسافة قريبة على ثلاثة فتيات في سيارة الفان ولم يقتل أي منهن. تبدو هذه رواية بعيدة الأحتمال، وقال الناس أنني قد شفيت بطريقة خارقة. وحصلت صديقتي شادية ، التي أصيبت مرتين، على منحة دراسية في كلية الأطلسي في مقاطعة ويلز لذلك فقد حضرت إلى المملكة المتحدة أيضاً للدراسة، وأتمنى أن تحصل أيضاً زميلتنا كاينات على منحة دراسية. أعلم أن الله أوقفني من الذهاب إلى القبر. وهكذا أصبح الامر كأن هذه الحياة بمثابة حياة ثانية لي. يطلب الناس من الله أن ينقذني، وأنني قد أُنقذت لسبب ـأُنقذت لكي أكرس حياتي لمساعدة الناس. عندما يتكلم الناس عن الطريقة التي أطلقت بها النار علي وعما حصل أعتقد أنها قصة مالالا، "الفتاة التي أطلقت طالبان النار عليها"، لم أشعر بتاتاً أن القصة تتعلق بي.

[٢٥] أسم يطلق على منتسبي حركة طالبان (وطالبان نفسها تعني طلاب العلم).

الخاتمة

طفل واحد، معلم واحد، كتاب واحد، قلم واحد ...

برمنجهام، أغسطس ٢٠١٣

في شهر مارس إنتقلنا من الشقة إلى بيت مستأجر في شارع مخضر محفوف بالأشجار، ولكنه يبدو كما لو أننا مخيمين في هذا المنزل حيث لا تزال ممتلكاتنا في وادي سوات. تنتشر صناديق الورق المقوى في كل مكان وهي مملؤة بكافة أنواع الرسائل والبطاقات التي يرسلها الناس، ويوجد في أحد الغرف آلة بيانو، ولا يعرف أي منا العزف عليها. اشتكت أمي من صور الآلهة الأغريقية المعلقة على الجدران وصور الملائكة المنحوتة على الأسقف والتي تشعر بأنها تراقبها.

يبدو منزلنا كبير وفارغ ويقع خلف بوابة حديد إلكترونية ونشعر في بعض الأحيان كما لو أننا موجودين فيما نسميه في باكستان بالسجن الفرعي، وهو نوع من الإقامة الجبرية الفاخرة. توجد في الخلف حديقة كبيرة بها الكثير من الأشجار ومرج أخضر لكي نلعب أنا وأخوتي الكريكت عليه. ولكن لا توجد أسطح يُلعب عليها، ولا يوجد أطفال في الشوارع يتشاجرون بالطائرات الورقية، ولا جيران يأتوا ويقترضوا طبقاً من الأرز أو أن نطلب نحن منهم ثلاثة حبات طماطم. لا يفصلنا عن المنزل التالي سوى الجدار ولكن يبدو كأنه يبعد أميالاً.

إذا نظرت للخارج، أرى أمي تغطي رأسها بشال وتتنزه في الحديقة مسليّة نفسها بتغذية الطيور. يبدو كأنها تدندن، ربما تدندن بتلك التابا التي تحبها:

"لا تقتل الحمامات في الحديقة .... أنت تقتل واحدة وسيحضر الكثير غيرها".

ونفس الوقت تنثر للطيور بقايا الأكل الذي تناولناه في عشاء ليلتنا السابقة والدموع تملأ عينيها. أكلنا هنا مشابه كثيراً لما كنا نأكله في البلد – فإننا نتناول الأرز مع اللحم في وجبتي الغداء والعشاء، بينما نتناول في الفطور البيض والشباتي[٢٦] والعسل أحياناً، هذه عادة بدأها أخي الصغير أتال، مع أن سندويتشات النيوتيلا التي إكتشفها في برمجنهام هي وجبته المفضلة. ولكن هناك بقايا طعام دائماً.

[٢٦] خبز بلدي لبعض سكان آسيا مشهور في تلك المنطقة.

أمي منزعجةً جداً بسبب الأكل، وإنني أعلم أنها تتذكر جميع الأطفال الذي كنا نطعمهم في بيتنا، والآن لن يذهبوا للمدرسة وبطونهم خاوية، وهي تتساءل كيف يعيش هؤلاء الصبية الآن.

في منقورا عندما كنت أعود من المدرسة دائماً ما أجد بيتنا يعج بالناس، والآن أكاد لا أصدق إنني كنت أتوق ليومٍ هادئٍ ونوع من الخصوصية لكي أنجز واجباتي المدرسية. أما في هذا المكان فإن الصوت الوحيد الذي أسمعه هو زقزقة العصافير وأخي خوشال يلعب "الإكس بوكس". ها أنا أجلس وحيدةً في غرفتي أتسلى بلعبة تركيب الصور المقطوعة وأتحرق شوقاً لقدوم الضيوف.

لم يكن معنا مالاً كثيراً ويعرف والدايّ ما معنى أن نكون جائعين. أمي لم ترد أحد ما خاوياً الوفاض في حياتها أبداً. في إحدى المرات حضرت أمرأة فقيرة إلى بابنا وكانت جائعة وعطشى ومحمومة بعض الشيء. أدخلتها أمي البيت وأعطتها طعام فسرت المرأة كثيراً. قالت المرأة، "لقد طرقت كل الأبواب في موهال[٢٧] دون جدوى، وهذا هو الباب الوحيد الذي فتح لي. أسأل ربي العظيم أن يبقي بابك مفتوحاً دائماً إينما حللتي."

أعرف أن أمي تشعر بالوحدة. لقد كانت اجتماعية جداً، في البلد لقد درجت جميع نساء الحي على التجمع في صالتنا الخلفية بعد الظهر، بالإضافة للنساء العاملات في المنازل المجاورة يأتين لأخذ قسط من الراحة. أما الآن فتمضي جل وقتها تتحادث في الهاتف مع جميع الناس في البلد. إن الأمر صعب جداً عليها علاوةً على أنها لا تتحدث الإنجليزية بتاتاً. كما أن منزلنا في منقورا يوجد به فرن وغسالة وتلفزيون، إلا أن الغريب في الأمر أن جمعيها هنا بدت مستعصية علي أمي، مما حدا بنا إيجاد شخص يشرح لنا كيفية استخدامها. وكالعادة لا يساعدنا أبي في المطبخ. فقمت بممزاحته قائلة، "يا أبتاه" إنك تتحدث عن حقوق المرأة، ولكن أمي تقوم بكل شيء! حتى إنك لا تنظف عدة الشاي."

هنا، توجد العديد من الحافلات والقطارات التي تستخدم للمواصلات ولكنا لسنا متأكدين من السماح لنا باستخدامها. كما أن أمي أفتقدت متعة الذهاب والتسوق في تشينا بازار. ومنذ أن جاء عمي شاه للإقامة معنا شعرت أمي بسعادة غامرة. فإنه يملك سيارة ويأخذها للتسوق، ولكن الأمر ليس كما كان بالسابق حيث أنها لا تستطيع أن تحدث صديقاتها وجاراتها بما أشترته.

طُرق الباب فقفزت أمي؛ إنها تفقز في هذه الأيام لأدنى ضجيج. وكثيراً ما تبكي ثم تحضنني. وهي تقول، "مالالا حية". إنها تعاملني الآن كما لو كنت أصغر أطفالها وليس الأكبر. أعلم أن أبي يبكي أيضاً، إنه يبكي عندما أدفع شعري للجانب ويرى الندبة في رأسي، ويبكي عندما

[٢٧] أحد أحياء منطقة منقورا (مكان سكن الراوية في بلدها الأم).

يصحو من قيلولة الظهر ويسمع أصوات أطفاله في الحديقة ويدرك منتشياً أن واحداً منها هو صوتي. لأنه يعلم أن الناس تقول إن النار قد أطلقت علي نتيجة لغلطته بتشجيعي على التحدث على الملأ مثلما يفعل آباء لاعبي التنس الذين يحاولون صنع الأبطال، كما لو أنني لا عقل لي.

حقاً إن الأمر صعب عليه، فكل الذي عمل من أجله لأكثر من عشرين سنة تقريباً تركه وراءه، المدرسة التي أنشأها من العدم، أصبحت اليوم تتكون من ثلاثة مبانى ويديرها طاقم من المعلمين بلغ السبعين معلماً بينما يبلغ عدد طلابها الألف ومئة طالباً. أعرف أنه يشعر بالفخر بما حققه شاب فقير من قرية لا تذكر وسط جبال بيض وسود. ومعبراً عن ذلك قال أبي، "إن الأمر، كما لو أنك زرعت شجرة ورويتها فمن الطبيعي أن يحق لك أن تستظل بظلها". كان حلمه في الحياة أن "تكون له مدرسة كبيرة جداً في سوات توفر التعليم الجيد، وأن يعيش بسلام، وأن ينعمُ الديمقراطية في بلادنا". ومن خلال نشاطاته ومساعدته للآخرين نال أبي الأحترام والمكانة الاجتماعية المرموقة في وادي سوات. لم يتخيل أن يعيش في الخارج أبداً وقد شعر بالإستياء عندما لمّح بعض الناس بأننا رغبنا في المجئ إلى المملكة المتحدة. كيف يعقل أن "شخص قضى ثمانية عشر عاماً في حقل التعليم ولديه حياة جميلة وعائلة، يُرمى بكل بساطة في الخارج تماماً كما تُرمي سمكة خارج الماء، لا لشيء سواء أنه يتحدث عن تعليم البنات؟" كان يقول في بعض الأحيان لقد تحولنا من أشخاص مشردين داخلياً إلى أشخاص في غاية التشرد.

وكثيراً ما نتحدث عن الوطن ونحاول تذكر بعض الأشياء أثناء تناولنا للوجبات. ينتابنا الحنين لكل شيء، حتى الجدول المائي ذو الرائحة غير اللطيفة. يقول أبي، "لو كنت أعلم أن هذا سيحدث، لكنت نظرت للخلف لآخر مرة، كما فعل النبي (صلى الله عليه وسلم) تماماً عندما غادر مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة. لقد نظر إلى الخلف المرة تلو الأخرى". وبالفعل تبدو بعض الأشياء من وادي سوات كأنها قصص من مكان بعيد، مثل مكان ما قرأت عنه.

يمضي أبي جل وقته في الذهاب إلى المؤتمرات المتعلقة بالتعليم. إنني أعرف أن الأمر يبدو غريباً بالنسبة له لأن الناس ترغب الآن في سماعه لأجلي، وليس لشخصه.لقد أعتدت على أُعرّف بأني إبنته؛ أما الآن فصار يُعرَّف بأنه أبي. وعندما ذهبنا إلى فرنسا لإستلام جائزة لي قال للجمهور، "أنا جزء من عالم يُعرَّف معظم الناس فيه بأبنائهم. أما أنا واحد من الآباء القلائل المحظوظين الذين يُعرَّفون ببناتهم".

في أحدى الأيام تفجأت بوجود زياً رسمياً جديداً رائعاً معلق على باب غرفة نومي، كان أخضراً فاتحاً بدلا من اللون الأزرق الملكي معد للذهاب للمدرسة حيث لا أحد يتخيل أنه سيتعرض لإطلاق نار لكونه ذاهب للدراسة أو أن شخصاً ما سينسف المبنى. بحلول شهر أبريل كنت في حالة صحية جيدة بما فيه الكفاية لبدء الدارسة في برمنجهام. وإنه لأمر جيد أن أذهب للمدرسة دون أن ينتابني شعور بالخوف كما كنت في منقورا حيث كنت أنظر حولي دائماً طوال سيري إلى المدرسة، مرعوبةً من أن يقفز أمامي طالب من جماعة طالبان.

إنها مدرسة جيدة وأن العديد من المواد متماثلة مع ما ندرسه في الوطن ويكمن الفرق في استخدام المعلمين البوربوينت (Power Point) والحواسيب بدلاً من الطباشير والسبورات السوداء. كما أن لدينا إختلاف في بعض المواد مثل؛ الموسيقى والفنون ودراسات الحاسوب والأقتصاد المنزلي، وأننا نتعلم كيفية الطهو، ونقوم بتطبيقات عملية لمادة العلوم وهو من الأمور النادرة في باكستان. وبالرغم من أنني حصلت مؤخراً على أربعين في المائة فقط في أمتحان الفيزياء، إلا إنها لا تزال مادتي المفضلة. أحب إذكاء معرفتي بنوتن والمبادئ الأساسية التي تحكم سير الكون كله.

ولكني أشعر بالوحدة تماماً مثل أمي. إلا أنني مدركة أن الأمر يتطلب بعض الوقت لأحظى بأصدقاء جيدون مثل أصدقائي في باكستان، كما أن البنات هنا يعاملنني بطريقة مختلفة. ويقول الناس، "يا إلهي، تلك هي مالالا، إنهم يروني بأعتباري "مالالا" الناشطة في مجال حقوق الفتيات". أما في السابق في مدرسة خوشال كنت مالالا فقط، نفس الفتاة الاجتماعية التي عرفوها دائماً، تلك التي تحب أن تحكي النكات وترسم الصور لتوضيح الأمور. يا إلهي، وتتشاجر دائماً مع شقيقها وأفضل صديق! أعتقد أن كل فصل لديه طالبة تحسن التصرف جيداً وفتاة ذكية جداً أو عبقرية، وفتاة مشهورة جداً، وفتاة جميلة جداً، وفتاة خجولة بعض الشيء، وأخرى سيئة السمعة، ... أما هنا لم أتمكن بعد معرفة أي فتاة تتحلى بأي من تلكم الصفات.

وبما أنه لا يوجد شخص أحكي له نكاتي، فقد أحتفظت بها وأحكيها لمونيبا عندما نتحدث بواسطة الإسكاي بي، وسؤالي الأول لها دائماً، "ما هي آخر الأخبار في المدرسة؟"، أحب أن أسمع من تشاجر مع من، ومن الذي وُبّخ ومن المعلم الذي قام بذلك. لقد أحرزت مونيبا المركز الأول في الفصل في جل الأمتحانات التي جرت مؤخراً. وقد علمت أن زميلاتي في الفصل لا يزلن يحتفظن بمقعد مكتوب عليه إسمي. أما في مدرسة الأولاد، وضع السيد أمجد ملصقاً كبيراً لي على المدخل وقال أنه يحيه كل صباح قبل ذهابه إلى مكتبه.

درجت على أن أصف لمونيبا الحياة في بريطانيا. أقول لها؛ تحف الشوارع صفوف من الأبنية المتماثلة، على عكس ما عندنا في باكستان، حيث كل شيء مختلف وتشوبه فوضى عارمة حيث تجد كوخاً مبنياً من الطين تشمخ الصخور بجواره بضخامة القلعة. أقول لها إنها منازل صلبة وجميلة ويمكنها تحمل الفيضانات والزلازل ولكن تعوزها الأسقف المسطحة للعب عليها. وأقول لها أنني أحببت بريطانيا لأن الناس تتبع النظم، ويحترموا رجال الشرطة وأن كل شيء يحدث في وقته المحدد. الحكومة هي التي تسيير الأمور ولا حاجة لأحد لمعرفة أسم قائد الجيش. أرى النساء يتقلدن وظائف لم تكن تخطر بخيالنا في وادي سوات. يعملن في الشرطة وحارسات أمن؛ ويدرن شركات كبرى ويلبسن كما يحلو لهن تماماً.

الآن لم أفكر في كثير من الأحيان في حادثة إطلاق النار، على الرغم من أن نظري في المرآة في كل يوم يعد بمثابة تذكار بها. لقد تمت عملية العصب الوجهي بأفضل ما يمكن. لن أعود أبداً بمثل ما كنت تماماً. لا أستطيع أن أغمز بعيني غمزة كاملة وأن عيني اليسرى تنغلق كثيراً عندما أتحدث. صديق أبي هداية الله قال له، يجب أن تفخروا بعينها. قال، "تلك هي عظمة تضحيتها".

لا زلت غير متأكدة من هوية من أطلق النار علي، ولكن رجل يدعى عطا الله قال إنه فعل ذلك. لم تتمكن الشرطة من العثور عليه ولكنهم قالوا إنهم يحققوا في الموضوع ويودون مقابلتي. كما لا تزال تعتريني من حين لآخر بعض الذكريات رغم أنني لا أتذكر بالتحديد ما الذي حصل في ذلك اليوم. كما أن تلكم الذكريات تعودني بدون ميعاد. أسوأها كانت في شهر يونيو، عندما كنا في أبوظبي في طريقنا لأداء العمرة في المملكة العربية السعودية. يومها ذهبت إلى أحد المراكز التجارية مع أمي التي كانت ترغب في شراء برقع خاص للصلاة في مكة المكرمة. شخصياً لم أكن أرغب في شراء واحد. وقلت إنني سأرتدي شالي فقط حيث لم يُحدد أن على المرأة أن ترتدي البرقع. وأثناء تجولنا في المركز التجاري، إذا بي فجأة أرى عدد من الرجال يتجمهرون حولي. لقد أعتقدت أنهم ينتظروني بأسلحتهم لكي يطلقوا الناري عليّ. لقد كنت مرتعبة لدرجة أنني لم اتمكن من أنبس ببنت شفة. قلت لنفسي، "مالالا، لقد سبق أن واجهتي الموت. هذه حياتك الثانية. لا تخافي – إذا خفت فلن تتمكني من التقدم خطوة".

نحن نؤمن عندما نري الكعبة لأول مرة في مكة المكرمة أن الحجر الأسود ومكانه هو أقدس الأماكن على وجه الأرض بالنسبة لنا، وأن الله (عز وجل) يحقق للمرء في تلك اللحظة أي رغبة وأمنية في قلبه. عندما نصلي في الكعبة، فإننا نسأل المولى عز وجل أن يحل السلام في

باكستان وأن ييسر تعليم البنات، ولقد تفجأة بأن دموعي تفيض لتلك اللحظات الملكوتية. ولكني صدمت عندما ذهبنا لزيارة بقية الأماكن المقدسة الأخرى في صحراء مكه حيث كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يعيش ويبشر الناس بالإسلام، تفجأة بمنظر تناثر الزجاجات الفارغة ومغلفات البسكويت. ويبدو أن الناس قد أهملوا المحافظة على التاريخ. وأعتقدت أنهم قد نسوا حديث المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، "أن النظافة شطر الإيمان".

لقد تغير عالمي بشكل كبير. وتزاحمت على أرفف غرفة معيشتنا المستأجرة جوائز من جميع أنحاء العالم؛ من أمريكا، والهند، وفرنسا، أسبانيا، وإيطاليا، ومن عدة أماكن أخرى. كما رُشّحتُ لجائزة نوبل للسلام، حيث كنت أصغر شخص يُرشح على الإطلاق لهذه الجائزة. عندما استلمت جوائز العمل في المدرسة، كنت سعيدة لأنني عملت بجد في المدرسة، أما هذه الجوائز فمختلفة جداً. فانا ممتنة لهم، ولكنها فقط تذكرني بالكم الهائل من العمل الذي يجب أن أقوم به لتحقيق هدف التعليم لكل ولد وبنت.لا أريد أن أُعرف بـ "الفتاة التي أطلقت طالبان النار عليها" وإنما أريد أن أُعرف بـ "الفتاة التي ناضلت من أجل التعليم"، وهذا هو الهدف الذي أود تكريس حياتي له.

في عيد ميلادي السادس عشر كنت في نيويورك للتحدث في منبر الأمم المتحدة. إنه لأمر شاق أن تقف وتخاطب الجمهور في وسط قاعة كبيرة تحدث فيها الكثير من قادة الأمم من قبل، ولكني كنت عارفة ما أود قوله. وقلت لنفسي، "هذه فرصتك يا مالالا". لم يكن يجلس سوى أربعمائة شخص فقط، ولكن عندما رفعت نظري تصورت وجود ملايين أخرى. لم أكتب كلمتي لمندوبي الأمم المتحدة الذين أعرفهم فقط، إنما كتبتها لكل شخص في جميع أنحاء العالم يمكنه أن يُحدث فرقاً.أردت أن تصل كلمتي لكل شخص يعيش في حالة من الفقر المزري، لكل طفل أُكره على العمل وللذين يعانون من سطوة الإرهاب أو الإفتقار إلى التعليم. كنت أأمل من أعماق قلبي أن تصل كلماتي لكل طفل يمكنه أن يستمد منها الشجاعة لكي يناضل من أجل حقوقه.

كتبت كلمة على شالات بنازير بوتو البيضاء التي أرتديها فوق ردائي الوردي المفضل – (شاروار كميزي) دعوت فيها زعماء العالم لتوفير التعليم المجاني لجميع الأطفال في العالم. وقلت، "دعونا نمسك كتبنا وأقلامنا. هي سلاحنا الأقوى. يمكن لطفل واحد ومعلم واحد وكتاب واحد وقلم واحد أن يغيروا العالم". لم أدري مدى أستقبال الناس لخطابي حتى غمرني الجمهور بحفاوته البالغة. وأنخرطت أمي في البكاء وقال أبي أنني قد أصبحت ابنة الجميع.

في ذلك اليوم حدث شيء آخر. سمحت أمي لأول مرة أن تصور علناً. وبما أنها عاشت حياتها ساترة وجهها بالبردة ولم تسفر عنه أبداً أمام عدسة الكاميرا من قبل. كان ذلك بالنسبة لها بمثابة تضحية كبيرة وصعبة للغاية.

في اليوم التالي في الفندق في وقت الإفطار قال لي أخي أتال، "مالالا، لا أفهم لماذا أنت مشهورة. ماذا فعلتي؟" كان طوال الوقت الذي أمضيناه في نيويورك مولعاً كثيرا بتمثال الحرية، والسنترال بارك، ولعبته المفضلة "بي بليد[٢٨]".

بعد الخطاب استلمت رسائل دعم من كافة أنحاء العالم، ولكن ساد الصمت على أغلب أهل بلدي، عدا أخوتي وأخواتي الباكستانيون يمكن أن أراهم بوضوح قد تحولوا ضدي على تويتير والفيسبوك. أتهموني بالتحدث متأثرة "بأشتهاء المراهقين للشهرة". حيث قال أحدهم، "أنسوا صورة بلدكم، أنسوا المدرسة. ستنال في نهاية المطاف الحياة الرغيدة في الخارج وذلك هو الأمر الذي تصبو إليه". لا أمانع من ذلك. إنني أعلم أن الناس يقولون هذا الكلام لأنهم خبروا أن القادة والسياسيين لم يوفوا أبداً بتلكم الوعود التي أطلقوها. وبدلاً من ذلك فإن الأمور في باكستان تزداد سوءاًيوماً تلو الآخر. إن الهجمات الإرهابية التي لا تنتهي قد تركت كل الأمة في حالة ذهول. فقد الناس الثقة فيما بينهم، ولكني أريد أن يعرف كل شخص بأنني لا أريد الدعم والتأييد لشخصي، إنما أريده أن يقدم من أجل السلام والتعليم.

في وسط هذا الخضم استلمتُ رسالة من أحد قادة طالبان الذي فر من السجن مؤخراً كانت الرسالة الأكثر إثارة للدهشة من جميع الرسائل الأخرى. يدعى عدنان رشيد وكان يعمل في القوات الجوية الباكستانية. لقد كان في السجن منذ عام ٢٠٠٣ لمحاولته إغتيال الرئيس مشرف. قال أن حركة طالبان قد هاجمتني ليس بسبب نشاطاتي لمناصرة التعليم ولكن بسبب محاولتي للتشهير والإضرار بجهودهم لإقامة نظام إسلامي. كما أضاف بأنه يكتب لي لأنه صدم بإطلاق النار علي، وتمنى لو كان حذرني سلفاً. وأوضح أيضاً بأنهم سيسامحوني إذا ما عدت إلى باكستان وأرتديت البرقع وذهبت إلى مدرسة التعليم الإسلامي.

لقد شجعني الصحفيون على الرد عليه، ولكني قلت، من يا ترى يكون هذا الشخص حتى يقول هذا الكلام؟ طالبان ليسوا حكامنا. إنها حياتي، وأعيش كما يحلو لي. ولكن الصحفي محمد

---

[٢٨] لعبة أطفال حديثة تشبه في حركتها خزروف الوليد إلا أنها تدور على الأرض دون أن تكون مربوطة بخيط ( )

حنيف كتب مقالاً مشيراً فيه إلى أن الشيء الجيد في رسالة طالبان إنها قد أظهرت للعديد من الناس الذين يتشككون في إطلاق النار علي، تحمل طالبان للمسؤولية.

أعرف أنني سأعود إلى باكستان، ولكن كلما قلت لأبي إنني أود العودة للوطن، يجد الأعذار. يقول، "لا يا *جاني*، إن علاجك لم يكتمل أو هذه المدارس جيدة يجب أن تظلي هنا وتتزودي بالمعرفة حتى يمكنك أستخدام كلماتك بصورة أقوى". كان أبي محقاً، أريد أن أتعلم أتدرب جيداً بسلاح المعرفة. من ثم أكون قادرة على المناضلة من أجل قضيتي بفعالية أكثر.

اليوم نعلم جميعاً أن التعليم هو حق أساسي لنا. ليس في الغرب فقط؛ إنما كفل لنا الإسلام أيضاً هذا الحق. يقول الإسلام يجب أن يذهب كل فتى وكل فتاة إلى المدرسة. ومكتوب في القرآن الكريم، يريدنا الله أن نتزود بالمعرفة. يريدنا أن نعرف لماذا السماء زرقاء وأن نعرف المحيطات والنجوم. أعلم أنها معركة كبيرة؛ حيث يوجد حوالي خمسة وسبعون مليون طفل في العالم لم يذهبوا للمدارس الإبتدائية، أثنين وثلاثين مليون منهم من الفتيات. وبكل أسف، إن بلدي باكستان من أسوء الأمكان في التعليم؛ بالرغم من أن دستورنا ينص على أن كل طفل لديه الحق في التعليم، إلا أن ١و٥ مليون طفل لم يذهبوا للتعليم الأبتدائي بتاتاً. ولدينا حوالي خمسين مليون أمي من الراشدين، ثلثيهم من النساء، تماماً مثل أمي.

أستمر مسلسل قتل الفتيات وتفجير المدارس. في شهر مارس وقع إعتداء على مدرسة بنات في كراتشي سبق لنا زيارتها. لقد ألقيت عبوة ناسفة وقنبلة يدوية في ملعب المدرسة في الوقت الذي كان حفل توزيع الجوائز على وشك البدء. لقد قتل مدير المدرسة السيد أبوبكر رشيد، وأصيب ثمانية أطفال تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والعاشرة. بينما أصبح طفل في الثامنة من عمره من المعاقين. وبكت أمي ثم بكت، عندما سمعت بالخبر. وقالت، "عندما ينام أطفالنا فإننا لا ننزع حتى شعرة من رؤوسهم. ولكن هناك أنُاس لديهم أسلحة يطلقون النار أو يقذفون العبوات الناسفة عليهم. ولا يهتمون أن ضحاياهم سيكونون أطفالاً". أما الهجوم الأكثر صدمةً فقد حدث في كيوتا عندما فجر إنتحاري نفسه في حافلة تقل أربعين طالبة إلى كلية البنات توفيت منهن أربعة عشر فتاة في الحال. كما تُوبعت المصابات لغاية المستشفى وأن بعض الممرضات قد قتلن والبعض الآخر أصبن بطلق ناري.

إن حركة طالبان ليست الوحيدة التي تقتل الأطفال. لم تقتلهم الطائرات بدون طيار أحياناً، وأحياناً أخرى الحروب، والجوع. وفي بعض الأحيان أسرهم من يفعل ذلك. لقد حدث في شهر يونيو أن قُتلت فتاتين في مثل عمري في منطقة جيلجيت، التي تقع للشمال قليلاً من وادي سوات، لا

لسبب سوى نشرهن لشريط فيديو على الأنترنت يظهرن فيه راقصات تحت المطر مرتديات للزي التقليدي والحجاب. ويبدو أن أخاهن غير الشقيق هو من أطلق النار عليهن.

اليوم يتمتع وادي سوات بدرجة من الأمان تفوق الأماكن الأخرى بكثير، ولكن لا يزال العسكر منتشرين في كل مكان، ورغم مُضي أربعة سنوات على الوقت الذي كان من المفترض أن يكون الجيش قد قضى على حركة طالبان. فضل الله لا يزال مفقوداً وسائق حافلتنا لا يزال قيد الإقامة الجبرية. ووادينا، الذي كان مرتعاً للسياح في السابق، أصبح الآن ينظر إليه منبعاً للخوف. فالأجانب الذين يرغبون في زيارته لا بد لهم من الحصول على شهادة عدم ممانعة من السلطات المختصة في أسلام أباد. أما الفنادق ومحلات التحف خالية. وحتماً سيمضي وقت طويل قبل أن يعود السياح مرة أخرى للوادي.

خلال السنة الماضية شاهدت عدة أماكن أخرى، ولكن يظل واديّنا أكثر الأماكن جمالاً في العالم بنظري. لا أعلم متى سأراه مرة أخرى ولكني أعلم بأنني سأراه. ماذا حصل لبذور المانجو التي زرعتها في حديقتنا في شهر رمضان. أقام أحدهم بسقايتها حتى يمكن للأجيال القادمة من الأولاد والبنات أن يتمتعوا بينعها في يوم ما.

اليوم نظرت إلى نفسي في المرآة وفكرت لثانية واحدة. لقد سبق في مرة أن طلبت من الله (عز وجل) أن يزيد طولي بمقدار بوصة أو بوصتين إضافيتين، ولكن بدلاً من ذلك جعل قامتي تطال السماء، طويلة جداً لدرجة أعجز عن قياسها بنفسي. لذا، صليت المائة ركعة صلاة نفل كنت قد نذرت أن أصليها إذا نميت.

إنني أَحب ربي. وأشكر إلهي. إنني أتحدث معه طوال اليوم. إنه الأكبر. بأن منحني هذا الشأو لأصل إلى الناس، كما أعطاني أيضاً مسؤوليات عظيمة. وهذا هو حلمي أن يحل السلام في كل منزل وطريق وقرية وبلد. وأن يتوفر التعليم لكل ولد وبنت في العالم. وأنه من حقي أن أجلس على كرسيّ وأقرأ كتبي مع كل صديقاتي في المدرسة. ورغبتي أن أرى كل إنسان تعلو محياه إشراقات السعادة.

أنا مالالا. لقد تغير عالمي أما أنا فلا.